كائن مؤجل

فهد العتيق

٢٠٠٤م

الإهداء..

إلى ابنتي غادة . .
وإلى ابني بدر . .
وإلى براري نجد العظيمة .
محاولة صغيرة للاقتراب من
الكائن المؤجل فينا جميعاً .

جسد وروح

الأيام تتشابه هنا . .

لكن حصة المسرح أفضل من حصة الرسم . .

ربما . .

في حصة الرسم بالابتدائي ، رسم وجهاً لبنت بجديلة قصيرة ، وقف المدرس على رأسه ، ثم وضع علامة (ضرب) على رقبة البنت .

تلك البنت ذات الجديلة ، هي سبب وخز ضميره المستمر ، إنها التي ذات ليلة ظلماء ذهب إلى ظلامها ، لا يحمل سوى عينيه وأصابعه ، ليتلمس جسدها الصغير ، كانت مستكينة ، وكان خائفاً ، ولا يعرفان ماذا حدث ، في تلك الليلة التي رقصت طفولتها طويلاً ، على أعتاب شيء جديد ، وفي ظلال موسيقى ليلة شبقة .

ومرة رسم شمساً وقمراً ، في لوحة واحدة .

ضحك الأستاذ :

- هذا لا يحصل أبداً يا ولدي . .

في مسرح الجامعة ، مثّل نصاً مُترجماً ، مع زملائه ، عن الذئاب الكبيرة التي تنهب الوطن ، فأغلقوا المسرح للصيانة ، وحين كتب عن وخز ضميره الذي أمرضه ، وأرسل ما كتبه للجريدة ، قالوا لا تصلح للنشر لأنها خيالية .

الأيام تتشابه بالتأكيد . .

والحقيقة تظل هاربة .

بالذات الآن ، في هذا العصر ، كل شيء في حالة هروب .

الأيام تتشابه في مللها ورتابتها ، في هذه المدينة المتحجبة ، منذ عصور قديمة وحتى الآن .

حتى الوجوه تتشابه ، وكل يحدق في وجه الآخر بلا هدف . لكن ما خلف كل هذه النظرات ، كل هذه الحجابات . .

كان على وشك النوم ، حين أكمل خاله قصيدة أحمد مطر ، وطني طفل كفيف . وفي الصباح ، ساحة البيت ملونة بالطباشير ، والوقت ضحى طازج ، وأنفاس تتردد بين جدران قديمة ، شمس حمراء دافئة مرسومة على الوجوه النائمة ، طفلة تحبو بملابس واسعة .

كيف أحببت هذا المكان ، كيف كرهت هذا المكان . لا يعرف؟!

يخرج من الغرفة الضيقة ، يرى ساحة البيت الملونة بالطباشير ، يستلقي بجانب طفلة الحبو بملابسها الواسعة . قطة ، عفاف ، بأظافر

طويلة ، وشعر منكوش ، وعيون تبحلق في المكان بحبور ، ووجه يجيد الالتفاف بسرعة .

في صباح كهذا ، عالياً مثل نبض قلبه ، يتجاهل وخز ضميره بالسهو ، يحاول أن يضع رأسه على ظهرها ، ينثر أغنية حزينة بجانبها ، لكنها أعطته ظهرها ، ومضت ، يتذكر رائحة جسدها التي مضت هي أيضاً ، كأنها رائحة استيقاظ ، أو رائحة بول قديم ، ويعود للسؤال ، عن الفرق بين الروح والجسد .

– يا الله . . غير ملابسك ، واغسل وجهك .

يود أن يمرض من أجل أن يظل هكذا ، مثل شيء معلق بين السماء والأرض ، فيبكي . . لماذا يبكي ؟ . . لا يعرف!

خوف يولد شكوكاً من كل شيء . .

لِمَ الخوف . . ؟

عندما أنام أختنق بريقي فأصحو هلعاً بنفس يكاد ينقطع ، أشرب كأس ماء ثم أنام .

حصل على وظيفة كانت حلماً ، ثم صارت إلى واقع رتيب . منذ تلك اللحظة التي بدأ فيها العمل ، مروراً بلحظات أخرى ، رأى فيها مديره في العمل ، ينظر في ساعته وقت الاجتماعات ، بينما المسؤول

الأعلى منه ، انشغل بالمكالمات الهاتفية ، وكأنهم جميعاً ، في حالة قلق ، ورغبة في الهرب من هذه الارتباطات ، بدأ يشعر أن العمل الذي كان حلماً ، يتهاوى أمامه الآن ، يرى نفسه ، مثل شيء محبط ، سقط ذلك الشيء الثمين الذي كان يحمله ، تكسر إلى شظايا صغيرة .

مزق صفحة من حياته ، كتبها ذات يوم في مسرح الجامعة ، وخبأها في جيب أفضل ثيابه ، كانت عن عمل يحقق به ذاته ، فتحولت الورقة إلى شيء آخر ، لا علاقة له بأحلامه القديمة .

قال له مديره في العمل ، وهو قريبه أيضاً :

– واظب على وظيفتك من أجل الترقية ، وحتى تتقاعد براتب جيد .

صدمته النصيحة . .

لكن والده أكد له :

– هذه نصيحة من إنسان مجرب . .

هنا بدأ الخوف . .

بدأت الشكوك في كل شيء ، أحياناً مجرد وخزة ضمير ، لكنها تهز كيانه بالكامل .

ترك الوظيفة ، ذهب إلى أخرى ، وعرف فيما بعد أن مديره السابق صار رجلاً ثرياً ، وفتح مدرسة خاصة ، ثم صار مستشاراً في مكتب رجل مهم . .

أخيراً استقر به الوضع في شركة ، شركة جديدة مليئة بالمهندسين والعمال الهنود ، لكن العمل بها مرتبك وغير واضح ، وفوجئ ذات ظهيرة أن مدير الشركة أحضر غداءً للمهندسين والعمال ، صحوناً كبيرة من الرز والدجاج ، وضعوها على مفارش وسط صالة المبنى ، أكلوا جميعاً وهم يتحدثون عن كل شيء ، ويعصرون الليمون على كل شيء ، ثم يشربون الكولا ، وبعد الانتهاء انفرد مدير الشركة بالمهندس المسؤول ، وأوصاه خيراً بالشركة ، لأنه يريد السفر خارج الوطن (للاستجمام) ، سأله المهندس عن رواتب العمال ، قال بعجل : إذا عدت يا أخي ، ثم ذهب إلى سيارته ، فلحق به أحد العمال وهو يركض صائحاً : مدير . . مدير . . يا صديق ، سأله المدير : ماذا تريد يا عظيم الزمان ، قال عظيم : راتب يا شيخ ، قال المدير بحدةٍ : اذهب للمهندس ، ثم أطلق عجلات سيارته للريح .

واصل العمل في هذه الشركة الجديدة التي بلا مدير ، عدة أشهر ، لكنه لم يجد هذه الشركة ، حين ذهب لها ذات صباح كئيب ، كانت خاوية على عروشها ، سأل حارس المبنى المجاور ، قال له : لا أعرف ، ومن الصحف عرف أن المهندس المسؤول نهب كل شيء وهرب ، وأن المدير (المستجم) حين عرف بالقصة أصيب بجلطة ، في مكان (استجمامه) ، فصارت رحلة علاج أيضاً ، أما عظيم الزمان فقد عمل سائقاً ، في البيت المقابل لمبنى الشركة سابقاً .

عاد إلى الوظيفة الحكومية مرة أخرى ، بعد أن تجاوز الكثير من أحلامه ، يحضر صباحاً للعمل ، يوقع الحضور ، يقرأ الصحف ، يتحدث مع زملائه ، يضحكون ، ثم يفكر كيف يخرج من العمل باكراً لكي ينام ، أو يقرأ ، أو يتابع المسلسلة اليومية .

لازالت الأيام تتشابه . .

عندما مثّل أول نصّ مسرحي على مسرح الجامعة ، صفّق له الأساتذة والزملاء ، لكن بعد التخرج ، لم يجد خشبة مسرح ، وجد مسرحاً عبثياً في تفاصيل حياته اليومية ، ولهذا وجد من الأفضل ، أن يكون أحد أعضاء هذا العبث ، وليس مجرد شاهد .

هجر الكتابة بعد تلك الخاطرة الخيالية ، بدأت حياته تدريجياً تدخل مناطق أخرى جديدة عليه ، إذ تعرف على أصدقاء جدد ، وحياة جديدة ، وشيئاً فشيئاً بدأ يعيث في حياته فساداً ، سفر وسهر على طول الطريق ، حتى نزل بهدوء إلى العالم السفلي لهذه المدينة المتحجبة ، وتعّرف على عالم الخيال الحقيقي ، المليء بوجوه النساء وأنواع الخمور المحلية والمستوردة ، أما تلك الأحلام العظيمة ، فقد أغلق عليها في غرفة مؤجلة ، داخل رأسه .

غرفة واسعة تستقبلهم مساء كل يوم حتى نهاية الليل ، في

إحدى شقق شارع الخزان ، غرفة شهدت ركاماً هائلاً من الحكايات التي لا تُنسى .

قال وهو يريد النوم بعد يوم مليء بالآثام : أشعر أنني شيء مؤجل . . ثم نام .

نام ليوم كامل أخاف أهله ، يختنق بريقه ، يصحو هلعاً ، يشرب كأس ماء ثم يعود للنوم ، تملؤه رائحة الغرفة العالقة منذ زمن بالوسادة ، بينما ترتفع من رأسه أصوات خافتة تئن متوازية مع أزيز غامض يدور في رأسه فيؤلمه حتى البكاء . أو الموت ، مع فقدان خفيف للذاكرة . . .

كان يسأل نفسه وهو يزور هذه الأماكن الجديدة ، والمظلمة ، والواطئة ، ما الذي أتى بي إلى هنا ، وفي مساء الغد ، ينسى أسئلته ، ويذهب لها من جديد ، تدوخه السجائر الغامقة اللون التي تخدر رأسه ، فيضحك ملء روحه ، ويسمع من الجالسين أخبار السياسة ، ونتائج مباريات كرة القدم التي يعشقها ، دون أن يشاهدها ، كما كان يحرص طالباً .

ظهر كل خميس ، كان يذهب مع أهله إلى الأقارب ، يتناولون الغداء ، ويعودون في المساء . أحياناً كثيرة لا يذهب معهم ، يظل نائماً حتى العصر ، يوقظه والده بعد عودته : انهض يا عدو الله ، ليبدأ الموعد مع عراك طويل ، ينتهي بهربه الموّقت من البيت .

بعد انتقالهم إلى الفيلا الجديدة ، انقطعت عادات الغداء بين الأقارب كل خميس ، وظلت علاقته بوالده مثل درجة حرارة مدينة الرياض ، غير مستقرة على الإطلاق ، أحياناً تكون في ذروة مجدها ، بسبب تنازل من الطرفين ، وأحياناً تسقط إلى أسفل سافلين ، بينما أخذت والدته المسالمة موقفاً محايداً من كل ما يحدث ، لكن علاقته بأخته عفاف ظلت علاقة حب صافية وحميمة ورفيعة من الطرفين ، فهو خادمها المطيع ، رغم أنه أكبر منها ، لهذا ظلت تراه أفضل الشباب مهما فعل ، ويراها أفضل البنات .

الأيام متشابهة بلا جديد ، والحقيقة تظل هاربة دائماً .

خوف مدمر من كل شيء . .

خوف يتناسل عدم ثقة في كل شيء . .

وجهه يحمّر حين يقابلهم . بتعليقاتهم الفضولية . .
عيونهم صارمة . .
يضحكون . . بلا عفوية ، ضحك مقصود ، للإساءة .
وهو يأكل في روحه ، وحين ينام يختنق بريقه .
أو ينام مملوءاً بالهواجس والوساوس والأصوات المتداخلة ، التي

تملأ رأسه الضاج ، فتحيل نومه إلى شيء مقلق يكرهه :

هل هذا هو المستقبل الحلم الذي كنت أنتظره . .؟ ثم يغيّر وضع رأسه على الوسادة الساخنة : أريد أن أظل هكذا لكي أنزل إلى متكئها الحالم ، وأكتب عن أحلامنا معاً ، وجنوننا معاً ، وموتنا معاً موتاً جماعياً .

يفكر الآن في جسده ، وفي روحه التي كادت أن تخرج من جسده ذات ليلة ، قبل أن يشرب كأس الماء :

أين كانت روحي قبل جسدي؟ . . هناك في السماء .

هل يمنع كأس الماء روحي من الخروج . .

ثم دخل في هلوسة ، ما يشعره وما يعيشه ، بين واقعه وما يتوهم دائماً أنه واقعه ، في أحلام اليقظة ، وفي أحلام النوم القلقة . ودائماً مشكلة الروح والجسد ، علامة هذا الضجر ، الذي يحاول أن يقرأه في عيون الناس ، فيرتاح قليلاً .

صمت الأشياء

في الصباح أكل جبنة مثلثة مع قطعة خبز ، وشرب كأس الشاهي واقفاً ، ثم خرج ، كان يفكر في أشياء كثيرة ، وخلفه تتساقط أشياء كثيرة ، يفكر في أسئلة الطبيب في الزيارة الأولى ، وماذا سوف يسأله بعد قليل . في الطريق كان أقل انتباهاً وأقل تركيزاً ، لا يرى سوى هذا الثعبان الأسود الممتد أمامه ، حتى وصل مقر العمل ، وقع الحضور متأخراً ، ثم انطلق نحو العيادة ، لكن حديث صديقه الأسبوع الماضي لا يزال يرنّ في أذنه .

قال له : هذا الطبيب النفسي سيئ السمعة . .

- كيف ؟

- تحرش ببعض مريضاته وحصلت مشاكل . .

- يمكن هذا الطبيب بحاجة إلى طبيب .

يتذكر أسئلة الطبيب السابق .

لماذا تشرب ، هل تمارس العادة السرية ، هل تحب الله ، هل

تحب والديك ، هل تحب الناس ، هل تحب الحياة ، ما علاقتك بالنساء ، هل تحب وطنك ، كم ساعة تنام في اليوم ، هل تدخن ، هل تداوم على الصلاة؟!

سأل الطبيب : وما دخل الصلاة .

قال الطبيب : أنت أجب فقط ، أقل لك من أنت (يضحك) .

في غرفة الانتظار صحف كثيرة قديمة ، تناول واحدة ، قرأ عناوين متكررة دائماً عن أمريكا وإسرائيل والقمة العربية ، وعن مظاهرات القاهرة ضد إسرائيل وأمريكا ، رمى بالجريدة ، ودخل على الطبيب بعد أن سمع اسمه ، وهو يفكر إننا في هذا الوطن نعيش في صندوق مغلق بعيداً عن العالم ، كأنه يرى هذا الصندوق يعوم في بحر كبير تتلاطمه الأمواج ، بلا بوصلة تهديه .

كان الطبيب يسأله بسرعة ، كأنه يحفظ هذا الكلام بالحرف الواحد ، وفي أغلب الأحيان هو نفسه من يجيب على أسئلته ، وحين ينطق هو بكلمة ، يتدخل الطبيب ، يلتقط هذه الكلمة ، يعلق عليها بثرثرة طويلة .

قال للطبيب : أختنق بريقي وأنا نائم . . وأحيانا أفقد الذاكرة .

قال الطبيب . . . وكأنه جهاز تسجيل :

– في الذاكرة شوارع مثل شوارع المدن التي مررت بها في حياتك ، هذه الشوارع لها شبيه في رأسك ، وهي في النهاية شوارع الذاكرة ، لكنها أحياناً تشبه الشوارع المسدودة .

ثم بحماس :

– حاول استعادة الذاكرة حين تأتيك الحالة ، حاول أن تعد من الواحد إلى العشرة ، سوف تعود الذاكرة سريعاً ، وهذا يعني أن حالتك طبيعية ، لكن لا تستسلم ولا تضعف ، حاول أن تسجل كل شيء مرّ في حياتك على شكل نقاط مثلاً ، لتنشيط الذاكرة .

ثم . . استدعى المريض الآخر . .

خرج من العيادة محبطاً ، وقد عقد العزم على عدم العودة للأطباء ثانية .

كانت المسافة بين العيادة والبيت غريبة وجديدة ، كأن الرياض تحولت إلى شيء آخر ، شيء يشبه المنزل الخرساني الصلد الذي سكنوه حديثاً ، يسمونه (فيلا) ، شيء كأنه يريد أن يلمس روحه الشرسة ، ويقول له : أنا لست أنا ، وأنت لست أنت . مساحات عميقة من الصمت في هذه المدينة ، بينما العالم يغلي في الخارج ،

صمت ضاج يمنحك فرصة الإنصات إلى قلبها ، هواجسها . أيام متشابهة في هذه المدينة التي لا تعرف هل هي متدينة أم منحلة ، مدينة كاتمة صوت ، مثل (قدر) مكتومة على وشك الانفجار .

يشعر بغربة عميقة ورغبة في البكاء ، بينما الرياض تدور معه ، من شارع العليا ، إلى شارع مكة ، إلى شارع الخزان ، مروراً بأحياء الطفولة ، حتى حي الشميسي ، ثم حي البديعة الجديد الذي احتضن قبل أشهر أحلامهم الجديدة ، في بيت واسع وموحش ، مشوار كأنه عمر من العيادة للبيت ، الآن . . سيارة بجانبه قبل المنعطف الأخير لحارتهم ، ترفع صوت موسيقى يعرفها ، وامرأة بكامل لبسها الأسود بجانب رجل يدخن ويضحك كأنه يرقص ، وهي تومىء برأسها فقط ، وربما كانت تضحك ، وإلى اليمين محل للتسجيلات الإسلامية ، التي انتشرت في كل الشوارع ، ثم صف من المطاعم والخياطين والبقالات التي لا تنتهي ، ثم السوق المركزي الذي بُني حديثاً وصار مكاناً لالتقاء العشاق ، وأخيراً هاهو المنعطف الأخير ، ثم تتوقف سيارته أمام باب بيتهم مباشرة ، نزل فوجد والده يجلس على عتبة باب (الفيلا) .

سأله مباشرة : أين كنت؟

قال له : في العمل .

قال : أريدك في مشوار .
سأل : الآن . . ؟!
قال : بعد العصر .

دخل البيت الذي حلمت به العائلة ثلاثين عاماً ، وهاهو يتحقق أمامهم الآن ، لكن بلا روح . يدخل الحمام ، يضع رأسه تحت حنفية الماء ، ربما تُخفّف وطأة هذا القيظ العظيم ، كان يسأل نفسه عن هذا الملل الذي غرقت فيه العائلة جميعها ، منذ وطأت أقدامهم ، هذا الحي الجديد ، وهذا البيت الخرساني الثقيل ، قبل عدة أشهر ، منذ تركوا بيت الطين الذي مازالت رائحته عالقة في جسده .

كان يظن أن حياتهم سوف تنطلق إلى فضاءات جديدة ، لكن لا سبب واضح لهذا الإحساس الحاد بالملل والغربة والفراغ ، هل يعود لتشتت الأهل والأقرباء في عدة أحياء متباعدة ، بعد أن كان الجميع في أحياء صغيرة متجاورة ، أو يعود لتشتتهم داخل هذا البيت الواسع الموحش ، وانفراد كل واحد بغرفته وحياته الخاصة ، لا يعرف ، أغلق حنفية الماء ، وضع فوطة على رأسه ، وهو يسمع صدى موسيقى خفيفة ، تأتي من إحدى الغرف ، ربما غرفة أخته ، خرج من الحمام ، دخل غرفته ، قال لن أنزل للغداء ، ولن أخلع ملابسي ، اتجه رأساً إلى السرير ، رمى جسده ، وفتح جهاز التسجيل ، كما لم يكن معتاداً ،

وآثر هذا اليوم أن ينام على ظهره ، ويا الله ، أية راحة تكشف عنها هذه الطريقة في النوم ، كان يحدق في سقف الغرفة كأنه يراه لأول مرة ، وعندما نظر إلى أرضية الغرفة شمله دوار عظيم ، حتى أن سلطان النوم ، دهمه فجأة ، على غير عادة ، فهل كان بحاجة إلى مثل هذا التغيير كي ينام بسرعة . أفاق أول العصر ، بعد ساعة من نوم قلق ، رأى فيها ، أن هذا البيت الجديد مليء بالمياه حتى الأسقف ، وهم يعومون داخله ، كما لو أنهم أسماك حزينة .

نزل الدرج في أربع وثبات سريعة ، حتى دخل في ظلمة الدور الأرضي ، ثم خرج إلى الشارع مروراً بأمه النائمة في الصالة ، بينما يصدح من (الراديو) الصغير بجانبها صوت المقرىء ، وهو يرتل سورة يوسف من إذاعة القرآن ، ومروراً بالحديقة الصغيرة المؤدية للشارع . وجد والده ينتظره بعد أن أدى صلاة العصر ، ركب معه في سيارته .

سأل الابن : إلى أين؟
قال الأب : إلى بيتنا القديم .

انطلق إلى هناك وهو يفكر ، هل يشعر والدي بالغربة أيضاً في هذه الحارة الجديدة ، وفي هذا البيت الواسع الذي طال انتظارنا له ، شعر بكآبة عابرة وهو يفكر بحالهم ، التي تشبه شمعة على وشك الانطفاء ،

شمعة تقاتل هذه الريح التي تهب عليها من كل الجهات لكي تبقى ، كان يحس أن الزمن ، مثل نهر قوي يريد أن يجرفهم جميعاً ، إلى أماكن لا يعرفونها ، ووجوه لا يعرفونها ، وفكر : إنه زمن الطفرة الاقتصادية ، زمن الأغنياء والأقوياء وأبناء الذوات ، وليس زمن الفقراء والمرضى والحالمين ، زمن الانتقال نحو عالم غامض لا يعرفون عنه شيئاً . يشعر فيه كأنه كائن ضائع ومعطل . كان والده صامتاً في السيارة ، وكان يشعر أن قسوته الدائمة تمنعه الآن من تقبيل يده اليسرى ، التي وضعها بجانبه ، وقد اتكأ على صندوق القماش الذي بينهما .

لماذا لا أخبره بتعبي ، هل سوف يهتم ، ربما أنه يخفي وراء قسوته طفلاً لا يبوح بأسراره .

وصلا الحارة القديمة ، كان الهدوء ، وعتمة خفيفة ورطوبة ، تلف شوارعها الضيقة في هذه العصرية الحزينة ، بينما لا زالت جدرانها تحفظ كتاباتهم القديمة ، وترابها يحفظ وقع أقدامهم القديمة ، أوقف السيارة في الشارع أمام الباب مباشرة ، نزل والده ، ونزل وراءه ، فتح الباب ودخلا ، توقف الأب وسط ساحة البيت ، بعد أن هرب عصفوران من الفتحة الواسعة في السقف ، ثم أخذ يتلفت حوله كأنه يبحث عن شيء ، وسط أكوام التراب .

سأله ابنه : ماذا ستفعل ؟

قـال الأب : من هنا . . . نحـفـر هنا . . . أسـفل هذه الجـدران الطينية . . ثم نضع أحجاراً قوية تحمي البيت .

مشى وسط البيت الصغير بتثاقل ، وكان صامتاً ، ثم طلب من ابنه أن يُحضر أدوات الحفر من الغرفة الصغيرة ، أحضرها له ، فبدأ الأب يضرب أسفل الجدار الطيني المتهالك وسط الدار ، والابن يحمل التراب خارج الحفرة .

حفر كثيراً حتى التعب ، توقف ، أخذ في يده حفنة من التراب الطيني ، شمّها . .

سأله : ماذا ؟

قال الأب : هذه الرطوبة تأتي من (البيارة) .

قال الابن : هل نشفط (البيارة) .

لم يرد عليه ، وواصل الحفر . . .

- هل أحفر عنك . .

- أنت لا تعرف الطريقة ، يجب ألاّ يختل توازن البيت .

استمر الأب يحفر حتى تعب ، جلس على المرتفع الترابي .

قال : سأستريح قليلاً .

قال الابن : يكفي هذا اليوم ونحضر عاملاً في الغد .

قال : لا . . ، ثم استلقى على ظهره .

لاحظ الابن ، بعـد قليل ، أن والده نام على التـراب ، في لحظة كـان أذان المغـرب على وشك الارتفـاع ، والوقت يدخل في ظلام ، بينمـا كان الابن يشعـر بالآلام في أطراف جسمـه ، وجسـده يرتعش كـأنه ضوء يهـتز ، ووخـزة خفـيفـة في رأسـه تأتي وتروح ، أسند ظهـره على الجـدار ، وهو يحس أن يداً ملوثة بالدم ، تتـحـرك داخل صـدره ، كـأنها تريد أن تقبض على قلبه ، عرق بارد ينضح من جسده ، جلس على الأرض ، ولاحت له رغبة في إشعال سيجارة ، لم يفعل احتراماً أو خوفاً من هذا الشيخ النائم أمامه . والده الآن يرقد بسلام ومتعة ، بينما هو في منطقة وسطى ما بين بيت طيني فقد الاهتمام به ، وبيت جديد لم يكنّ له مودة بعد .

يتـأمل نوم والده ، يتـذكـر ، تلك الحـيـرة أو المطب الذي وقع فـيـه والده ، قبل الانتقال إلى الحارة الجديدة بأشهر ، حيرة من نوع عميق لم يستطع أن يخرج منها بسهولة ، حين تقدم لأخته عفاف شابان ، الأول ملتحٍ قصير الثوب ومتوسط التعليم ، ويتحدث بطريقة جماعة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والآخر جامعي لكنه يدخن ، الاثنان من عائلتين طيبتين كما يقال لكن . . . ، هو ووالدته وقفا مع الشاب الثاني ، ومعهم أخته صاحبة الشأن ، أما والده وشقيقه الذي يصـغـره فـقـد كـانا مع الأول ، وهكذا أسـابيع طويلة من المشـاورات والمشـادات والخـلافـات ، حـتى وصل الأمـر بوالده ، إلى رفض الاثنـين .

ظل يفكر بصورة أخرى تجاه هذه المسألة . .

يرى أن هذا المجتمع ، الذي ينتقل الآن من مرحلة إلى أخرى ، من أحياء بيوت الطين إلى أحياء بيوت الخرسانة الجديدة ، قد انقسم إلى فريقين ، فريق تزمت دينياً ، وفريق اندفع نحو الحياة الاستهلاكية الجديدة بكل قوة ، وبينهما فريق ثالث ضائع وتائه لا يعرف ماذا يجري حوله ، وكُلّ يحاول جرّه إلى منطقته ، بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة ، على طريقة الاغتصاب الإنساني ، ورأى أن أخته عفاف من تلك الفئة الثالثة المسكينة ، وسط هذه الأمواج المتناقضة والمتلاطمة ، تعوم كأنها سمكة حزينة .

هكذا نقلوا حياتهم وأفكارهم وأحلامهم وعاداتهم ومخاوفهم ، إلى البيوت الجديدة ، حتى في مدخل البيت وضعوا مجلساً للرجال ومجلساً للنساء ، وبابان خارجي وداخلي للرجال ، ومثلهما داخلي وخارجي للنساء ، داخل بيوت عالية الأسوار ؟! .

سمع عن أورام عجيبة ظهرت ، جرائم بشعة يرتكبها مراهقون ، وأحياناً يرتكبها رجال الشرطة أنفسهم ، انحلال أخلاقي ، تزمت ديني مرضي ، فساد ، فوضى ، سطو ، دعارة ، مخدرات ، سرقات ، والأراضي قفزت أسعارها فلا يكون بمقدور شاب أن يفكر بشراء قطعة أرض لبناء سكن خاص ، قصص ولا في الخيال دارت رحاها الغامضة ، شباب يضربون رجل دين حتى الموت ، رجال دين يقفزون

أسوار البيوت العائلية من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، شباب يتزوجون من تايلاند ولا يعودون إلى الوطن ، شباب يموتون في أفغانستان باسم الجهاد ، ومعسكرات صيفية لتعليم المراهقين الغلو الديني وكره الحياة وكره الناس ، أصبح المجتمع فريقين ، فريق يرفع شعار إن الله شديد العقاب ، وفريق يرفع شعار إن الله غفور رحيم ، وكل شيء ينتهي طبعاً بـ . . . صدق الله العظيم ، وخلف كل هذا طبول إعلامية تقول ، كل شيء على ما يرام .

أفاق والده ، وقف بجسده الطويل والنحيل ، نفض الغبار عن ثيابه .

سأل ابنه عن الوقت .

قال : المغرب .

قال الأب : البيت يحتاج إلى عمل كبير ، سوف نحضر العمال الأسبوع القادم .

قال الابن : إن شاء اللّه .

خرجا من البيت ، أغلق الباب ، وقبل أن يركبا السيارة ، إذا بالشيخ إبراهيم العقاري يلقي التحية ، إنه إمام المسجد ، وصاحب مكتب العقار في الحارة ، وكان قد سارع إلى شراء البيوت الطينية من أصحابها ، الفارين إلى العالم الجديد في الأحياء الجديدة ، ثم يؤجرها

على الأسر الفقيرة ، يشتريها بثمن بخس ويحصل على ما دفعه من إيجار عشر سنوات ، ثم تصير من أملاكه .

رحب بهما ، ثم سأل عن أحوال البيت ، وهل في نيتهم بيعه .

قال الأب : نريد إصلاحه وتأجيره .

قال العقاري : أعطني المفاتيح وسوف أصلحه من قيمة الإيجار .

وافق الأب على الفور ، وأوصاه خيراً بالبيت .

قال الشيخ إبراهيم : لا تخف . . بيتك في أيدٍ أمينة .

الشيخ إبراهيم هو عمدة الحي ، إمام المسجد ، وفراش المسجد ، وصاحب المكتب العقاري ، متزوج من امرأتين ، وله أولاد وبنات تزوجوا جميعاً .

ذهبوا إلى مكتبه المجاور لبيتهم ، فتح المكتب ودخلوا ، أدى الأب صلاة المغرب ، ثم دخل مع الشيخ إبراهيم في تفاصيل عقد الإيجار ، والابن جلس على الكرسي المجاور للباب يتأمل الحركة الصامتة في شارعهم الصغير ، ويفكر في ذلك التاريخ الذي لم يبق منه ، سوى ذكريات أشبه ما تكون بالغيمات الراحلة ، يفكر في إضاءة زوايا كثيرة مظلمة في ذلك الزمان ، وتلك الأمكنة ، لكن في هذا الوقت الضائع من الوقت الضائع دائماً ، لا شيء يكشف شيئاً ، كل الأشياء المحيطة غامضة ، مساحات عميقة من الصمت تلف كل شيء ، فقد الشارع رجاله وأطفاله ، ونساءه بعباءاتهن السود وضحكاتهن الصاخبة .

في هذا الشارع كبروا ، وتعلموا المشي والكلام ، والخوف ، والأحلام والصمت أيضاً ، وفي الشارع الواسع خلفه ، سوق صغير لنساء ورجال يبيعون كل شيء ، حتى الحكايات والأساطير الشعبية ، مع أنواع اللبان ، والأشياء المسحوقة للمرضى والنفساء .

كانت بداية العلاقة مع هذه الحياة ، ومع شوارع هذه الحارة ، صارمة ومخيفة .

ذات خوف حين كان شارعهم يودع آخر أنفاس شمس الغروب ، كانوا يلهون في الحارة حفاة الأقدام ، ويطلّون على سكان البيوت الطينية المواربة أبوابها الخشبية ، لم يكونوا بعيدين عن تلك الحفرة الوشم التي لم يروا حياتهم منذ ولدوا بدونها ، وفجأة سمعوا صرخة صغيرة ، في الوقت الذي لمح فيه طفلاً يهوي في الحفرة التي تشبه البئر القديمة ، كانت لحظة غارقة في ذهول طفولي أسود ، وكان الطفل في تلك اللحظة المرعبة ، يطلق صرخة مدوّية من صدره الصغير ، وربما كان معها يطلق النفس الأخير ، كان كل شيء مرعباً بعمق معنى الكلمة ، وكان في المكان جمع كبير ، كانوا قادمين من سوق المدينة ، باتجاه مساكنهم ، توقف الناس وأخذوا يحدقون في الهوة المظلمة التي ابتلعت الطفل ، وهو من البعد يرقب المشهد بهلع ، كان كمن ربطوا قدمه بسلك كهربائي ، يرتعش والعرق يتصبب من جسده ، وبدا مثل

من لا يصدق ما رأى ، كائن بشري يسقط في ظلمة أبدية تبتلعه بكامله!! ومع مرور الأيام حاول نسيان ما حدث ، لكن بلا فائدة ، ذهب بعيداً في مذاكرة الدروس واللعب ، ولكن أشياء كثيرة دائماً ما ترسم تلك الصورة في ذهنه ، مع إحساس غامض كان يدهمه أحياناً بأن من سقط في تلك الحفرة هو ، وليس أحداً سواه ، وكان في أوقات أخرى يتصرف على هذا الأساس ، كما لو أنه ذلك الطفل الذي هوى ، حتى رأى ذات حلم أن الحفرة تتسع وتتسع ، لتلتهم في طريقها نحو المزيد من الاتساع ، المزيد من الناس ، حتى أصبحت أكثر اتساعاً ، لتلتهم حارتهم بأكملها ، لكن حين أفاق بنصف يقظة أو يقظة غير صريحة ، اكتشف أنه كبر ، وأنهم انتقلوا إلى حارة جديدة ، وصار لهم جيران جدد يقتنون سيارات جميلة وملونة ، ويلبسون ثياباً ناصعة البياض ، يعطرون ملابسهم ويخرجون من منازلهم ، ثم ينطلقون في شوارع المدينة . ثم كبر مرة أخرى ، ليعرف أنهم جميعاً يسيرون عكس اتجاه السير .

داهمته الرغبة في النوم ، وهو جالس على الكرسي ، بينما يستمع دون اهتمام للحوار بين والده والشيخ العقاري وجيران آخرين ، يتكلمون بسرعة وبهجة ، كأنما كل واحد منهم وجد ضالته في الآخر ، فهذا والده الصارم يضحك مع الشيخ إبراهيم ، لأول مرة يراه يضحك بهذا العمق ، يشرب القهوة المُرّة ويأكل التمر رغم مرضه بالسكر ،

ويضحك .

– يا الله . . كم أرى وجهه جميلاً وهو يضحك ، لماذا يخبئ هذا الوجه الجميل عنّا ، هذا الأب الذي كان يقابل طفولتي عند باب بيتنا الخشبي بصلف دائم ، حين كنت أريد الدخول ، يرفع صوته وهو ينظر باحتقار إلى هيئتي . . أين كنت يا . . . يهودي .

الآن في نومه اليقظ ، في مكتب الشيخ إبراهيم ، يشعر أن آباء كثيرين يلاحقونه بوجوه متشابهة ، ولحى كثة ، يلاحقونه ، كل واحد يريد أن يكون أباً له ، آباء بعدد شوارع الرياض ، يطاردونه في هذه اللحظة ، يريدون أن يكون مُلكاً لهم ، كما لو أنه قطعة أرض ، آباء كثيرون ، وهو الحالم المريض ، يريد ، بعد أن تجاوز مراهقته ، أن يهرب منهم جميعاً وينطلق بمنظار آخر بلا يقين ، وبلا حسم ، حتى أسئلته الطفولية ، عن الموت وعن الله وعن الجنس وعن النساء وعن الروح والجسد ، ، كان يريد أن يخرجها من تلك الغرفة المظلمة في رأسه ، لكنها ذابت في تلك الغرفة ولم يعد لها وجود ، سطت عليها أسئلة الحلال والحرام والعمل والسياسة وأمريكا وإسرائيل ، قتلتها وحلت محلها .

يعود ليتأمل الحوار الدائر بين هؤلاء الجيران . .

والده ، والشيخ إبراهيم وسط بهجة الحكي ، ينطقون حرف

الكاف ، بالسين الثقيلة من طرف اللسان ، مثل كل أهل نجد ، لكنه لا يعرف نطق هذا الحرف بالذات ، مثلاً : كيف الحال ، يعني : سيف الحال ، وهكذا ، لكنهم يتكلمون بسرعة ويضحكون ، ولازال هو على وشك النوم ، يفتح عينيه حين ترتفع أصواتهم ، يقع نظره على الشيخ إبراهيم ، يُبادله النظر ، يبتسم ، ثم يعود إلى نومه . كان يظن أن عائلتهم وحدها هي المتعبة والحالمة والمبعثرة والمغتربة ، حتى بدأ يرى آثاراً سوداء على وجوه الناس الذين يلتقيهم كل صباح في طريقه للعمل ، والآن يرى هذه الآثار في وجه الشيخ إبراهيم ، الذي يشكو إهمال أولاده له ، وانقطاع بناته المتزوجات . أحياناً يتحدث هذا العمدة بصوت مرتفع ، يشتم أولاده وبناته ويشتم الدنيا ، لكن والده يرد عليه : لا تشتم أرجوك .

لازال يفكر في هذه النقلة الجديدة في حياتهم ، ماذا فعلت بهم ، ماذا فعلت بكل الناس ، الشيخ إبراهيم بنى عمارة وثلاث فلل لأولاده ، والده بنى لهم فيلا كبيرة بعد أن باع كل شيء ، وهذا حصل مع كل الناس الذين يشتمون الآن كل شيء ، ولا يعرفون ماذا جرى ، لكي يبدوا عصبيين ومتأزمين دائماً . .

ودعهم الشيخ إبراهيم العقاري ، بعد حوار حافل ، خرجا من المكتب ، وركبا السيارة .

كان والده صامتاً طوال الطريق إلى المنزل ، لكن قبل أن يصلا بقليل ، سأله دون أن يلتفت :

- لماذا استأجرت شقة .

- قال له : قريبة من عملي . . . . . لم يكمل !!

رفع الأب يده بأن يتوقف ابنه عن الحديث ، لكن الأب ظل ساهماً حتى وصلا ، نزل من السيارة ، والابن ذهب إلى شقته .

كـائن مؤجل

خرج الأصدقاء بعد منتصف الليل ، ما عدا وليد الذي بقي في الصالة يقرأ الصحف ، دخل خالد غرفة النوم ، أسدل الستارة وفتح المكيف ، استلقى على ظهره ، وهو يشعر بآلام في كل أنحاء جسده المُخدر ، وغثيان في المعدة بفعل كأسين فقط .

قال إني لن أموت ، لا يموت الإنسان قبل يومه ، أو قدره ، الموت تسبقه رائحة ، تملأ حياة الإنسان ، ولهذا يشعر البعض بدنو أجلهم قبل الرحيل بأيام ، الآن لا أشعر أن الموت قريب مني ، حتى وأنا أتنفس بصعوبة ، ورأسي تعصف به آلام السهر والقلق ، فأرى النوم بعيداً مع هذا التعب ، ربما بعد يومين أو ثلاثة أعود لحالتي الطبيعية ، لكن هذه الدائرة التي تحيط بي ، أشعر أحياناً أنها محكمة الإغلاق ، تعود من دائرة السهر إلى حياتك الطبيعية ، تأكل وتشرب وتنام ، تداوم العمل ، وتزور الأهل والأقارب مثل عباد الله الصالحين ، في روتين يومي ، لا تلبث أن تمله ، وتعود لدائرة السهر والأصدقاء والقلق من جديد .

شيء ما يشده إلى هذا العالم ، هل الرغبة في الهرب من هذا الواقع ، أم أنه أكثر ضعفاً في مواجهة واقع لم يفهمه بعد . .

في كل مرة يقابله والده يسأله : لماذا عيونك حمراء ، أو منذ متى لم تنم يا شاطر؟!

أشعر أنني شيء مؤجل ، أو كائن مدجّن .

ولكن ، الآن ، أنا حر ، في هذا المكان الصغير الذي يضم أحلامي المؤجلة .

لازال يحدق في أظافر يديه كل لحظة ، لكي لا ينسى ذاكرة مجروحة ، وأحلاماً مكسورة ، وصفعات قديمة ، فيفيق وينتبه ، على وجه كظيم وقنوط ، وأظافر صغيرة لطفل كبير ، يبعثر الأسئلة واللعنات ، ثم يتذكر بكاء أمه وسطوة أبيه ، أبوه الذي في الشوارع ، والطفل الذي بداخله ، لازال يراه جيداً ، يركض في الشوارع والحارات ، يكتب على الجدران أسماء الأصدقاء ، يبني بيوتاً من تراب ، يركض في كل حارات المدينة ، يسهر الليالي الطويلة ، يدخن ويشرب مضمخاً برائحة الوقت اللذيذ والرقص والنساء .

قد يكون المستقبل هو ما يعيشه الآن ، ما كان ينتظره وما سوف

ينتظره ، يقف أمامه الآن مثل رجل ، مثل عمود النار ، وحتى الآن هو بلا أسرة ولا بيت خاص ، ها هو المستقبل ، كأنه يريد أن يلمسه بيده ، يدور مثل هواء حول رقدته المؤلمة ، لا يشعر بالغربة في بيت والده فقط ، لكن أيضاً ، في هذه المدينة ، يشعر أنه أقل من كل الناس بلا سبب .

أحياناً يشعر أن ما يعيشه ليس سوى حلم طويل ، ينبغي أن لا يشغل ذهنه بتفاصيله ، لأنه مجرد حلم لا أساس له من الواقع ، حتى تدهمه لحظة واخزة في الضمير يشعر فيها بحدة التحقق من وجوده ، على أرض واقع صلب شديد الخشونة ، فتعود حالات القلق وفقدان الذاكرة ، يفكر في والدته وأخيه وأخته ، وأحياناً يشعر بخطأ الخروج من بيتهم ، مع عدم الرغبة في العودة لتلك الحارة .

في آخر لقاء مع أخته عفاف في بيت والده ، قالت له إن شقيقي أحمد لم يعد يشاهد التلفزيون ، وإنه يغلقه حين يرانا نشاهده أنا وأمي ، كما أنه مزق رسوماتي التي علقتها في الصالة وأخفى جهاز التسجيل ، وصار يغيب عن البيت في أوقات كثيرة .

يا الله . . كيف يأتيني النوم وأنا أفكر بهذا السيل من الأشياء التي تدعو للاختناق . بماذا عليّ أن أفكر لكي أنام .

من الصالة التي يجلس فيها وليد ، يأتيه صوت مذيع نشرة

الأخبار من التلفزيون ، وهو شبه مخدر ، يتذكر أياماً قديمة مع وليد ، يتذكر سطح بيتهم الجديد ، السهر والشرب والأصدقاء ، كانوا ينامون في السطح حتى توقظهم الشمس ، وكان والده يبني بيتهم الجديد جوار بيت والد وليد ، حين قرر أن يهرب من كل هذا ، إلى هذه الشقة المنزوية ، بعيداً عن ذلك العالم المتربص ، المليء بالعيون المتلصصة التي ما تكاد تراك ، حتى تبدأ في بث مواعظها . أحدهم استوقفه ذات مساء وهو يمشي من بيت والده الجديد إلى بيت وليد .

قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

– : وعليكم السلام ، ضحك الشيخ ثم حاول أن يضع يده على كتفه ، ابتعد قليلاً .

قال : أهلاً يا شيخ . . خير إن شاء اللّه .

قال الشيخ : نحن وأنتم الساكنون الجدد في حارتنا المباركة هذه ، نريد أن نعقد اجتماعاً يومياً في المسجد .

سأله : لماذا؟

قال : نتدارس أمور الدين والدنيا .

قال له : نترك أعمالنا وحياتنا لنتدارس أمور الدين والدنيا .

ضحك الشيخ الصغير وقال : ألا تبحث عن شيء يسجل في ميزان حسناتك .

قال : العمل عبادة والنوم عبادة أيضاً .

قال : ليس في كل الأحوال يا بني .

وفجأة ظهر شاب صغير لم يتجاوز العشرين على نفس هيئة الشيخ ، لحية وثوب قصير ، ومعه كيس من أشرطة الكاسيت ، فأيقن أنهم بدأوا يرسمون عليه ، فتركهما مردداً : سلام عليكم ، وكانا في حال ذهول .

قال في نفسه وهو يضحك بسخرية : كان لابد أن أتركه ، لأنه يريد أن أستمع إليه ، ثم أمشي خلفه ، ثم أحضر محاضراته ، ثم أوزع أشرطته ، ثم أخيراً يقطع لي تذكرة ذهاب فقط إلى أفغانستان ، بينما يظل هو هنا هانئاً في بيته ومع زوجاته .

ربما ، أشياء كثيرة على ما يرام ، الآن .
بدأت الآلام تهدأ ، وبدأ يشعر بوجوده .

يتبقى فقدان الذاكرة ، ودواء الطبيب الذي لم ينفع حتى الآن ، وكذلك ما لاحظه في الفترة الأخيرة ، فقد بدأ يحدّث نفسه في بعض الأحيان ، وحين ينتبه لهذا الفعل الغريب يصمت ، وأحياناً ، حين يسمع حديثاً بين اثنين في العمل أو في الشارع ، يشعر أنه قد سمع هذا الحوار من قبل رغم استحالة ذلك ، ثم في لحظة يدرك عدم صحة حدسه ، لأن ما أمامه ليس سوى وجوه لا يعرفها .

ترك السرير ، خرج إلى الصالة ، جلس على الكنبة ، أشعل

سيجارة ، تأمل دخانها ، الذي حجب قليلاً ملامح وليد ، الجالس على قطعة الزل أمام التلفزيون ، ثم سأله عن أخبار مشروع زواجه .

قال وليد : مات المشروع نهائياً .

كيف؟! سأله .

ذهبت إلى بيتهم مساء أمس ، كنت في حال بهجة وملابس عريس ، لكن والدها فاجأني بأسئلة غريبة .

سألني عن العلاقة بين والدتي وخالي . .

قلت له : ما بها ؟

قال : يقولون إن والدتك لا تكلم خالك الذي هو شقيقها . .

قلت : ربما خلاف بسيط . .

قال : كيف خلاف بسيط ، ثم هل خالك متزوج فعلاً من (. . . .)؟!

قلت : صحيح . .

ضحك ثم سألني : وعمك لماذا سجنوه العام الماضي .

قلت له بحدة : هل هذه محاكمة ؟

قال لي وهو يضحك أيضاً : لا . . لكن لا أريد لابنتي أن تعيش في مثل هذه الأجواء ، خصوصاً أنها تريد إكمال دراستها العليا .

وهنا عرفت أن سبب رفضه هو غروره بمنصبه الجديد ، فاعتذرت له وخرجت ، بعد أن هالني ما رأيته من تحف في بيته ، وهو الذي كان فقيراً معدماً . .

واصل وليد بحماس :

كل جدران بيته دواليب زجاج مليئة بالكتب والتحف ، هل تتصور ذلك ، كيف يقرأون وهم ينفقون أوقاتهم في الأسواق والفنادق والسهرات ، مع حفظ بعض العبارات الثقافية لزوم الحضور الصوتي في المجالس ، هذا البيت شاهد على حياة استهلاكية ، ضربت أعماقنا .

أطفأ خالد سيجارته . .

قال : انس موضوعه ، ثم سأله عن أخبار الصحف . .

قال وليد : هل تذكر المثل الذي يقول : ذهبنا لاسترداد إبلنا المسروقة فأخذ الغزاة أغنامنا ، وهذه حال العرب الذين حاولوا استرداد فلسطين فذهبت العراق ، ولهذا كان الإرهاب الغبي رد الفعل القوي على الإرهاب الأمريكي والإسرائيلي وإهمال الحكومات العربية لشعوبها طوال نصف قرن .

تحدّث خالد بصوت ثقيل : قبل يومين ، زرت بيت الأهل ، أمضيت وقتاً خانقاً ، أختي قالت لي ، إن شقيقها أحمد دخل غرفتها وأخذ جهاز التسجيل لأنه حرام كما يقول ، ذهبت لغرفته وسألته : لماذا يا أحمد؟! قال لي بصوت صارخ : حرام يا أخي ، قلت له : الجهاز في غرفتها وأنت اقتحمت أشياءها الخاصة ، قال : نحن في قارب

واحد إذا غرق فسنغرق جميعاً .

تخيل ، هذه الشاعرية الدينية . . قارب وغرق وحرام .

قلت لها : سوف أمنعه عن كل ما يقوم به ، ويعيد لك الجهاز .

المهم أنني صورت ورقة من جريدة عربية ، كان فيها موضوع لباحث عربي في الشؤون الإسلامية بعنوان : (السنة النبوية العملية أباحت الغناء والفنون المصاحبة له) ، وداخل الموضوع عشرات الأحاديث الصحيحة ، جميعها أحلت الغناء ، وقد وضعت الورقة أسفل باب غرفة شقيقي أحمد ، ثم جاءني رده ، بأنه لا يعترف بمثل هذه الأحاديث . وهذا من حقه طبعاً ، لكن ليس من حقه أن يفرض على الآخرين ما يراه صحيحاً ، بينما هم يرونه غير صحيح .

قال وليد : لا تعطي الموضوع أكبر من حجمه ، إنها موضة سائدة في البلد هذه الأيام ، كما أن أحمد في سن المراهقة ، وربما يغيّر سلوكه .

وأكمل في حال اندهاش : هل تلاحظ ، فسد كل شيء ، فسدت علاقات الناس ، وفسدت أماكن العمل وفسدت العلاقات الأسرية ، وغرقنا وسط تناقضات دينية وسياسية واقتصادية عارمة ، ماتت الحارة الحقيقية ، ومات المجتمع الحقيقي ، ومات الإنسان الحقيقي ، ولم يعد باستطاعتنا أن نعيد أنفسنا من جديد للخروج من هذا الخراب العظيم .

صمت وليد لحظة ثم واصل : لست متشائماً يا صديقي ولكن

كل ما أمامي يدعو لذلك ، لأن الصورة من البعد سوداء ، وأمراض المجتمع وتزمّته الآن ، كان خلفها أياد سوداء كان لها مصلحة في إمراضه ، أليس الدين نفسه يدعو للوسط ويرفض الغلو .

لاحظ وليد أن صديقه أغمض عينيه ، ولهذا طلب منه أن ينام ، قال خالد وهو شبه مُخدر : حين تأتيني الحالة الملعونة ترتفع حرارتي ، وأشعر بدوار ، أغيب لحظات ، كأن الزمن يتوقف عند هذه اللحظة ، التي تشبه الإغماء ، وحين تعود الذاكرة ، تعود قوية وأكثر عمقاً من ذي قبل ، إلى درجة أشعر أن تفاصيل طفولتي مرسومة في الفضاء الذي بيني وبينك . أفكر في طفولتي ، من صاغني بهذا الشكل ، أسئلة عن الوجود ، تجعل جسدي على وشك أن ينفصل عن روحي ، عندما أغرق في حلم قوي وصريح يجعلني أبدو مثل تائه ، ينام نومة غير مريحة ، أشعر بطيران الروح ، يغادر العقل ، فتتهاوى كل الأشياء أمامي ، في صمت سينمائي مؤثر .

سأله وليد عن دواء الطبيب وهو يضحك ، قال : تركته بعد أن نصحني بتنشيط الذاكرة بالعد من واحد إلى عشرة أو بالكتابة ، قال وليد : وماذا كتبت ؟

لا أريد أن أكتب في حالة يأس ، فأنا في هذه اللحظة أرى حياة تغرق في الفوضى واليأس والحزن ، أوقات مليئة بكل شيء إلاّ أسئلة المواجهة الصريحة ، كلُ يخبئ أسئلته ، يكتمها ، ثم تعبر عن نفسها بانفعالات مرضية . لكنني قرأتُ عن رائحة لمسها الناس قبل أن

تخرج من القدر المكتومة ، قبل أن تخرج الأرض عن صمتها ، ونحن نبني حلماً آخر ، وطناً آخر في منتصف المسافة بين المدينة والبر ، نحلم أن مركباً سوف يجيء من آخر الدنيا ، نرى بعينين غامضتين ، نصفنا نوم ، ونصفنا الآخر يقظة ، فهل تخرج الكتابة الحرة الجديدة واضحة الآن ، هل تخرج إلى جنونها قبل أن تغرق السفينة ، قبل أن يشتعل الحصى في الجبال القريبة ، والورد في الآنية .

كانت خيوط الصباح تطل عليهم من نافذة الصالة . . نهض وليد من جلسة طويلة على الأرض ، لبس (غترته) وغادر ، وهو ترك الصالة ، ذهب يدور في الشقة يبحث عن نوم مفقود ، وعن وجه جميل مفقود ، فرفع الصوت عالياً : محتاج لك ، والله ، يا أميرة .

يقظة غير صريحة

أغلق جهاز التلفزيون ، وهو يشعر بشيء جديد يسري مع الدم في عروقه .

في الطريق إلى الغرفة كان أكثر حزناً مما يظن .

وقف يتأمل وجهه في المرآة ، وسط الصالة ، كان يشعر ، بعبث ، أن شيئاً تائهاً عن دربه ، سوف يخترق الجدار خلفه ، ثم يستقر في ظهره .

ارتعد جسده ثم مال قليلاً ، على إثر هذا الشعور المباغت ، رأى أنه أخفى ضحكاً مكتوماً على ما يحدث في الخارج ، لكنه ظل ، مستمتعاً بفكرة ، ذلك الشيء الضائع الذي سوف يطعن ظهره .

كان لوجهه ملامح جديدة ، لم يرها منذ زمن طويل ، بدا كما لو أنه ، بهذه النظرات الجديدة ، أكبر سناً ، أو أكثر قلقاً ، أو ربما ، كلاهما ، مع خوف جديد يشي بروح جديدة ، لكن لازال وخز الضمير ، والخوف ، والشك ، والاختناق بالريق .

قال : لا أرغب الآن في النوم ، بعد كأسين قلقتين ، وحوار متكرر وممل .

وضع إبريق الماء على النار ، مكث جواره يتأمل بخاره المتصاعد ، أو يتأمل النافذة الصغيرة ، التي تصله من فتحات شبكها أصوات مختلطة للجيران ، رجال ونساء وأطفال ، يحدّثون بعضهم أو يحدثون أقرباءهم بالهاتف مع أصوات موسيقى خفيفة .

خرج إلى الصالة مصحوباً بالدوار والخوف الممتع المثير ، وكأس من (الشاهي) ، ومن النافذة الواسعة تأتي رائحة الهواء كأنها رطبة أو ممزوجة برائحة الرصاص أو البارود أو الزيت أو الفحم .

للمرة الأولى منذ وقت طويل لا يعرفه ، ربما منذ الطفولة ، يعتريه شعور خفيف وغامض ومبهج ومثير للخوف ، للمرة الأولى منذ وقت طويل لم يشعر بشيء من هذا ، بشيء من الإثارة التي تعمّق المشاعر وتجعله يحس بوجوده على نحو مرعب ، حيث يتوقع أن يحدث شيء ، حين تنفجر تلك القدر التي تغلي منذ زمن ، ربما تنكشف الحقيقية .

مرت سنوات طويلة ، كانت المشاعر فيها مسطحة ، والرؤية للأشياء محايدة ، والأحداث المتباعدة التي تحيط به غير مهمة وغير مثيرة .

كان لكأس الشاهي طعم مختلف ، ورائحة جديدة ، قال : إن كل شيء أصبح مختلفاً ، حتى سلوك الكثير من البشر الذين أصبحوا الآن أكثر انفعالاً وأكثر أنانية ، فهل يفعل الخوف كل هذا .

في الطريق إلى النوم عبر شوارع كثيرة ، قابل وجوهاً كثيرة ، وحادث أناساً كثيرين ، كانوا يجلسون على عتبات أبواب بيوتهم وهم

يبحلقون في السماء .

في الطريق إلى النوم كان أكثر قلقاً وحزناً وخوفاً مما يظن .

النوم لا يأتي ، لكن تعب الجسم كأنه وخزات إبر ، يشعر هذه اللحظة أنه يعيش في حالة جديدة ، غارقة في ذهول عجيب ، ليست بين نوم ويقظة ، لكن ربما بين واقع خفيف وحلم أشد وطأة من الواقع ، يشعر أنه الواقع الحقيقي ، والذاكرة يعود بها إلى الوراء ، تدور على الصور ، ثم تقترب من الحاضر بسرعة ، في محاولة لجمع شتات الصور المتناثرة ، يفكر في والده ووالدته وأخته التائهة وأخيه أحمد الذي يكاد يضيع من بين أيديهم ، يفكر في أشياء كثيرة تحدث ولا يعرف معناها ، فإلى سنوات مضت ، كان يطمح إلى شيء جديد يغير حياتهم وأفكارهم لينطلقوا بشيء جديد ، بعد سنوات من الحياة في صندوق مغلق ، لكن كل شيء ينهار دفعة واحدة ، والحياة تسير بهدوء وملل يشبه الموت .

أغمض عينيه في لحظة نادرة المتعة ، لكنه في ذروة المجد ، سمع صوت جرس الباب . .

فتح الباب لكن لم يجد أحداً ، تأمل المدخل الهادئ والمظلم

قليلاً ، ثم دخل ، أغلق الباب ، وهو يشعر أنه يدخل بصحبة أحد ما ، رجل من الأزمنة القديمة ، يحمل تاريخاً يجب التعرف عليه ، قال لـه : يجب أن أعترف بشيء يا صديقي ، فأنا لست مشغولاً كما أوهمتك سنوات طويلة ، أنا أمكث في بيـتي لا أغـادره منذ عـدة سنوات ، لا أخرج إلا قليلاً ، ومثل هذه العزلة علمتني كيف يمكن أن يكون الهدوء رجلاً نبيـلاً أو امرأة فـاضلة أو لوحـة تشكيليـة شـفـافة وعـذبة وغالـية وحبيبة ، علّمتني كيف أضع جداراً عالياً بيني وبين الأصوات الأكثر ضجيجاً والأكثر إيذاء والأكثر بؤساً ، أزدحم بأشياء كثيرة ، بشوارع وحـارات ووجـوه وأسـئلة وحـوارات وبيـوت وأسـواق ، أزدحم بنسـاء ورجـال وأطفال ، أزدحم بأشيـاء تنتظرني حين أخرج ، ثم أعود إليـها لاهثـاً ، فـأجـدها مـوضـوعـة على الطاولة بعناية تـنتظرني ، وهنا فـقط أتذكـر أين وضعت رأسي قبل أن أخـرج ، فأهيئ لكل هذه الأشيـاء ، وقتاً ساخناً ، وفناناً ومتوجساً وشاعراً ومنتشياً ، ينام بقربي .

عاد إلى الغرفة ، وصدى جرس الباب يرنّ في أذنه ، شعر بإرهاق مـفـاجئ ، توقف ، اتكأ على جـدار قـريب ، مـشى قليـلاً ، حـتى وصل إلى غـرفـة النوم ، رمى جسـده على السـرير ، مكـث عـدة دقائق يتـابع نبض قلبه المتسارع ، حتى بدأ يشعر بوجوده شيئاً فشيئاً ، لكن الذاكرة كـانت ضعيـفة . في لحظة وامضة شعر بغربة في هذه الغرفة ، أخذته بعـد ذلك إغـفـاءة صغـيـرة ، ثم للحظة بعـد الإفـاقة ، لـم يعـرف مكان وجوده في البيت . . .

هل أنا في الصالة ؟! . تساءل .

الظلام لا يعطيك فرصة للحركة أو الرؤية .

لقد كنت في الغرفة ، قبل أن تنطفئ الإضاءة هكذا فجأة ، هل انطفأت فعلاً ، أو قبل أن أشعر بالظلام الكبير حولي ، نعم في الغرفة ، ولكن أشعر أن المكان صغير ، قد يكون غرفة الجلوس المجاورة للصالة .

يمد يده ، يتبعها بجسده وسط الظلام ، فيتعثر في هذا الفضاء الموحش ، ينهض ، يرفع يده ، يقترب من الجدار ، يسند ظهره ، ثم يتأمل المشهد المظلم .

ألم في عينه يصل إلى رأسه ، أين النظارة :

كل ما أعرفه أنني كنت مسترخياً على السرير ، حين أفقت مذعوراً على أصوات مجلجلة ، أصوات رجال ونساء وأطفال كأنهم في حفلة ما ، كانت نومة مضطربة وكنت ما بين يقظة غير صريحة ونوم غامض ، أسترجع صوراً وأحاول تركيز ذهني لكي أعرف هل كانت صوراً حقيقية واقعية أم مجرد أحلام ، صور قريبة جداً لا تلبث أن تبتعد في لحظة من لحظات هوان الذهن .

إذن . . ربما كان الباب مفتوحاً ودخلوا .

أظن أنني رأيتهم يدخلون ، لكنهم كانوا مشغولين ، كانوا يتحدثون مع بعضهم بأصوات مرتفعة ، كنت أراهم مثل أشباح تدخل وتخرج ، يدخلون الغرف والحمامات والمطبخ ، ويخرجون منها بأصوات

وحوارات مرتفعة .

تمتد عيناي إلى أبعد نقطة في الصالة ، التي بدأت أتيقن من وجودي فيها ، أستطيع أن أرى بصعوبة ستارة النافذة التي تطل على الممر ، لونها السماوي اللامع ، الشيء الوحيد الذي يسطع في هذا الظلام ، مع بعض ضوء شحيح يأتي من الباب الموارب .

هل ركضت قبل قليل ناحية هذا الضوء ، ألم العينين لازال ، والنظارة ما زالت مفقودة .

أذكر أنني وصلت البيت بعد مشوار طويل ، بدّلت ملابسي ، ثم رميت بجسدي المرهق على هذه السرير ، أين وليد ، كنت مسترخياً بعينين مفتوحتين فقط ، وجسد متعب وذهن مشتت وحالة غريبة هي ما بين اليقظة والنوم ، حتى أحسست فجأة بالظلام الدامس والصور الغريبة والوجوه الكثيرة والأشياء التي أحاول استرجاعها ، ثم هذه الأصوات ، وأصحابها الذين يتجولون حولي بكل صخب ، ألم يصل أحياناً إلى الرأس فلا تميز بين الحقيقة والخيال ، قلت لا علاقة لهذه الحالة بالنظارة ، لكن أين هي؟! الحقيقة واضحة أمامي الآن . . لقد دخلوا البيت في غفلة مني ، دخلوا في وقتي ، الذي ربما أخذتني فيه إغفاءة قصيرة ، هل دخل الليل؟!

سوف أتأكد من وجودي حين أقطع هذا الفضاء المظلم أمامي ، حين أدخل المطبخ ، حين أرفع كأس الماء البارد المليء ، وأسكبه دفعة واحدة في جوفي ، لأرتوي من هذا الظمأ القديم ، سوف أقطع هذه

الصالة رغماً عن أجسادهم التي تروح وتجيء ، وأصواتهم التي أرهقت فضائي الهادئ ، وبعد أن أرتوي أعود إلى الكنبة الطويلة لكي أتم فصول المسرحية ، في هذه الصالة الجديدة ، لأكتب عن ذلك النوم الغامض غير الصريح ، وتلك اليقظة الغامضة أيضاً ، وغير الصريحة .

لكن هكذا فجأة ، وجدت أنني أنزل إلى تلك المنطقة الغامضة ، ربما قد أستطيع بعدها ، أن أرتاح قليلاً ، أو أسلم روحي لموت يشبه الموت السريري ، الذي يجعلك تقضي حياتك ساهماً فقط .

هبطت إلى هناك ، على استحياء ، أغلقت إضاءة البيت ، ثم نزلت إلى أرضها آمناً ومستسلماً ، إلى أرض الحبيبة المفقودة ، نزلت أبحث عنها ، وأبحث عن الرؤيا ، غافراً لقلبي خطاياه الصغيرة ، وآمراً روحي بأن تتوحد مع كل شيء في هذه المكان ، ربما أصيد الرؤيا ، هارباً من وقتي ، هارباً من حروب صغيرة وصراعات هنا وهناك طال شرارها وقتي المنكسر ، هارباً من عبث ، ومن ركض دائم بلا معنى .

نزلت متطامناً .

ولما استويت على أرض جديدة ، رأيت دروباً ضيقة ومعتمة .

رأيت وجهها النوراني فأجلستني على متكأ حالم .

تحركت نفسي ، فبدأ قلبي يتحرك أو يبتهج أو يرقص .

بدأت أحس الطفل الذي كنته ، حين عادت بي الروح الجديدة إلى أماكن جديدة .

قالت لي سوف تنهض روح جديدة في داخلك ، وسوف تنهمر

شـعـراً وغناءً ورقـصاً ، لـكي تنفض غـبـار السنين العـالق في روحك القديمة .

أغـمـضت عـيني في هذه الأرض الجـديدة ، ورأيتني في صـورة أخرى أراها من البعد ، ترقص وتغني ، حتى حلّ المساء ، وجُنّ الليل ، وسكنت الحياة .

قالت عُد لأهلك يا ابن الحياة فأنت ، الآن رجلاً جديداً .

صـعـدت إلى هنا من جـديد ، وإذا بي أرى الطفل الذي كنتـه ، والرجل الذي ما زلته يلتقيان في طريق ضيق ومعتم ، وخلفهما وجه نوراني يغويني ، كأنه لأميرة ، قلت : كل النساء جميلات .

تذكـرت أنني احـتـفلت به في وقت قـريـب ، وجه يشتـعل ضـوءاً مثل وردة .

قلت لم يمت الطفل في داخلي . .
لم تمت الأمكنة القديمة . . والجديدة .
لم تمت الذكرى . .
وهذا صباح جديد يفيق على رأسي . .
والشمس مضيئة مثل وجه فتاة مرحة . .
وثمة ألحان جديدة . .
تسكن روحي . .

ثمة حقيقة غامضة ، أكثر سطوعاً من ذي قبل ، على وشك أن تعبّر عن ذاتها .

وفي الخارج . . . أرى حنيناً ، يريد أن يصحبني إلى هناك ، إلى أرضي الجديدة ، ذلك الحنين الذي كان يعتريني ، منذ زمن طويل ، ولم أكن أعرف ، كيف أقرأ سطوره .

أفاق من نومة مثيرة وقلقة ، على بهجة صغيرة ، بأنه أفضل الآن ، بعد راحة قصيرة ، لكن قدراً من الحزن الأصيل ، بدأ يلف وقته ، حزن أسطوري ، يذكره بوجوه قديمة ، لأسواق قديمة يعرفها ، مليئة بالآباء ، والباعة ، والنساء بالعباءات السوداء والتعاويذ والرقيات ، والأجواء الأسطورية لحارات ، تفوح منها رائحة ، تضمخ جدران البيوت بألوان مستحيلة ، وبهجة قلقة ، وحزن قديم ، كأنه قدره الدائم ، مع حالة انتشاء خفيفة ، جعلت أعصابه مستثارة ، فتذكر رغباته الجنسية الجامحة ، التي يتجاهلها كثيراً ، وبدأ حياة أخرى ، بحثاً عن حقيقة غامضة وهاربة ، ربما يجدها في اللحظات المثيرة بين الروح والجسد .

حياة أخرى

الآن . . حياة أخرى . .
في البدء . . مجرد رغبة لتنشيط الذاكرة الخاملة .
كان يتفرج على الورقة البيضاء بالصمت الجليل . .
أجمل صورة . . أمامه الآن :
ورقة . . وصمت . .

ورقة بيضاء صامتة ، يعد فيها من الواحد إلى العشرة ، دون رغبة حقيقية في الكتابة ، وأمامه لوحة ورقية بيضاء .

كـان يفكر في تلك الأوراق المحـفـوظة ، منذ زمن ، في الغـرف المظلمة ، من روحه ، أو رأسه ، أو جنونه .

أوراق صامتة ، معبأة بالتواريخ والصور والأحلام والأفراح والآلام و . . الذكريات .

بياض يبحث عن سر المعنى .

كتابة عن (حياة) صغيرة نبتت وسط الرياض القديمة بعد طفرة اقتصادية خجولة ، مطلع الخمسينات الميلادية ، ثم انطفأت هذه الحياة الأولى ، وبدأت أخرى كبيرة مطلع السبعينات الميلادية ، نقلت الناس من هذه الحارات الطينية ، إلى الحارات الحلم المبنية بيوتها من الخرسانة والحديد ، بأسوار عالية ، ونوافذ محكمة الإغلاق ، فهل كان الحلم ، الذي تحقق ، على مستوى عذوبته ، حين كان مجرد حلم فقط؟!

منذ ولد وحتى مرحلة مراهقته تحديداً ، التي تعني مرحلة الانطفاء لحارتهم ، كانت فترة الاشتعال الجنسي بالنسبة له ، والاشتعال السياسي في المنطقة العربية أيضاً ، بعد زيارة السادات لإسرائيل ، بالإضافة إلى حالات الرفض والتمرد على أشياء كثيرة ، وإذن كان هناك الكثير من القصص التي تستحق أن يُنشّط بها ذاكرته .

ولهذا سوف يتجاوز تلك القضايا الضخمة ، التي علقوها على مشجب التاريخ ، لأنها لم تكن تهمهم أصلاً ، سوف يتجاوز عبد الناصر ، وحروب العرب مع إسرائيل ، وقطع الملك فيصل للبترول عن أمريكا عام ٧٣م ، واحتلال جهيمان للحرم ، واتفاق السلام بين السادات وإسرائيل والحرب الأهلية في لبنان ، واجتياحه من قبل

إسـرائيل ، واحـتـلال العـراق للكويت ، ومن ثم احـتـلال وسـائل الاتصالات الحديثة للعالم ، واحتلال أمريكا للشرق الأوسط ، فمن أنت حتى تهتم بمثل هذه الأمور الكبرى ، هذه الأمور المضحكة الآن .

في هذا البياض الصامت ، سوف يحاول خلق روح أخرى موازية لروح استعرت ، في داخله المريض سنوات طويلة .
روح تحاول استبطان المعنى . .

كتابة مفتوحة . . . عن تلك الأماكن التي مرّ بها ، ولا زالت رائحتها ، كأنه يريد أن يلمسها ، ولا زال طعم سكرها في لسانه .

الآن . . حياة أخرى . .

إذ في مطلع القرن الماضي ، خرج أربعة فلاحين من إحدى قرى الرياض ، خرجوا من حال الجوع ، يبحثون عن حياة جديدة ، كان معهم قربة ماء وكيس من التمر الناشف ، تعينهم على قطع أكثر من مئة كيلومتر وسط الصحراء مشياً على الأقدام .
في القرية التي خرجوا منها ، قال الناس إنهم ذهبوا للكويت

للعمل في البحر ، وقال آخرون إنهم ذهبوا ليعملوا في مزارع الرياض الوفيرة الماء ، لكن أغلب رجال القرية الذين أنهكهم الجوع مع عوائلهم ، لم يفكروا بالرحيل وترك مزارعهم الخاوية وأراضيهم الجافة ، كانوا يصلّون لربهم كل مساء ، من أجل أن يمّن عليهم بالمطر ، حتى نسوا أمر هؤلاء الرجال ، الذين غادروا دون رجعة ، كانوا يدفنون موتاهم الذين قضوا بسبب الجوع ، ثم يلجأون إلى المسجد ، للدعاء من جديد .

في الأيام الثلاثة الأولى ، لمسيرة الرجال الأربعة كانوا أكثر حماساً وأكثر قدرة على قطع المسافات الطويلة ، بسبب عمل سنوات طويلة أكسبهم القوة والصبر ، ساروا ساعات طويلة ، كانوا أقوياء ، وكان الحلم بالحياة الجديدة في مدينة الرياض يهز مشاعرهم ، وهم يحثون الخطى ليل نهار .

في اليوم الرابع ، مساءً ، استراحوا تحت شجرة كبيرة ، شربوا وأكلوا من التمر الناشف ثم ناموا حتى الفجر ، صلّوا ، ثم واصلوا المسيرة ، حتى نفد التمر اليابس ولم يبق سوى قليل من الماء ، ظلّوا يمشون حتى شعروا أنهم قطعوا أكثر من نصف المسافة ، يرتاحون قليلاً ثم يواصلون المسير ، دون أن يأبهوا لأصوات غامضة تحيط بمشيهم ، قادمة من آخر ظلام الصحراء ، يمشون طويلاً بأحلام كبيرة ، وأحزان

كبيرة على فراق الأهل والأحبة ، وحين حلّ بهم التعب العظيم ، ارتاحوا ، بعد أن ارتسمت على وجوههم علامات التعب والبؤس والقلق ، فقد نفد التمر ونفد الماء ولا يوجد قرى مجاورة ، يمكن أن تروي عطشهم القديم ، حتى الكلام فقد قدرته على التعبير ، وصارت نظراتهم لبعض ، أو لهذا الليل البهيم في الصحراء ، هي لغة أخرى قاسية وخائفة ، نظرات مليئة بالخوف ، وكأن الخوف يكاد يتحول إلى شيء أو رائحة ، تدور حول أرواحهم التي فقدت معنوياتها ، وحول أجسادهم المنهكة .

وفي لحظة غامضة ، نظر الرجل الرابع لهم نظرة غريبة ، كان مستلقياً غير بعيد عنهم ، لكنه شمّ رائحة ما مخيفة ، فنهض واقفاً ، وركض بكل ما تبقى له من قوة ، ركض مسافات طويلة حتى غاب عن أصحابه الثلاثة في ظلام صحراء نجد العريقة ، لقد شعر هذا الرجل ، بأن أصحابه الثلاثة ، وهم أصلاً أبناء عم ، يفكرون في أكله ، وفي اللحظة التي دهمه فيها هذا الشعور ، فقط بادلهم نظرات وجلة وغامضة ومريبة ، ثم أطلق ساقية للريح ، بينما كانوا في حيرة من أمرهم ، كيف عرف هذا الرجل ، بما كان يدور فعلاً في أذهانهم ، بشكل غير جاد .

وصل الرجل ، بعد أن شارف على الموت إلى قرية صغيرة ، كانت

بالنسبة لـه حياة جديدة ، بعد أن رأى الموت بعينيه ، وهو يركض هذه المسافات ، جائعاً وظمآن ، استقبله أحد رجال القرية ، حين سقط هامداً جوار حائط مسجدها الوحيد ، قدم لـه الماء والأكل ، وطلب منه أن ينتظر حتى صباح الغد ، لأن هناك راحلة سوف تذهب إلى الرياض ، التي صارت على مسافة غير بعيدة .

في الصباح انطلقت الراحلة فعلاً ، وصلت الرياض بعد يومين ، فأحس الرجل أنه ولد من جديد ، فنام عدة أيام متتالية في (منفوحة) ، الشاعر الأعشى ، جنوب الرياض ، بعد ذلك عمل في مزرعة مقابل أكله وشربه ونومه ، وحراستها أيضاً ، فبدأ يفكر في أهله الذين تركهم في قريته ، أما رفاقه الثلاثة ، فقد مسحهم من ذاكرته .

هذا الرجل هو جدّه ، فقد تزوج ، فيما بعد واحدة من نساء الرياض ، أنجبت له والده وعمه وعمته ، وعمل والده أيضاً مع جدّه في نفس المزرعة عدة سنوات ، حتى استطاعوا الانتقال من الرياض القديمة إلى وسط الرياض الجديدة في ذلك الوقت ، إذ بنوا بيتاً من الطين ، بعد استقرار الكثير من العوائل ، عندما فتحت بعض الدوائر الحكومية والمدارس أبوابها ، إبان حكم الملك سعود مطلع الخمسينات

الميلادية ، ومن بعده الملك فيصل ، وهنا تزوج والده من امرأة قريبة لهم ، نزح أهلها من الوشم إلى الرياض ، فحمل والده راية العائلة بعد وفاة جدّه ، عمل ساعياً في إحدى الدوائر الحكومية ، فبدأت العائلة تنتعش قليلاً ، بعد سنوات من الكدّ والتعب والتنقل من بيت إلى بيت في حارات الرياض القديمة ، لكن علاقتهم لم تنقطع بالأهل في القرية ، إذ كانوا يزورونهم في الأعياد ، من خلال سيارات النقل ، التي تذهب للحجاز أصلاً .

في مطلع السبعينات الميلادية ، بدأ ينتبه للحياة حوله ، إذ بلغ العاشرة تقريباً ، وبدأ يسمع عن أشياء حدثت ، ثم انتباهه لهذا الحضن الذي يحتويه في حارتهم المتوعكة قليلاً ، بسبب انخفاضها عن الحارات المجاورة .

حارة تبدو مثل كائن خرج تواً من كومة تراب ، كان في أحيان كثيرة ، يفكر من أين جاءت ، من اختار لها هذا المكان ، متى ولدت هذه الحارة ، لماذا جعلها الله منخفضة هكذا ، من هي (أم سليم) التي سُميت الحارة المرتفعة المجاورة لهم باسمها ، يقولون إنها وطأت هذا المكان منذ سنوات طويلة ، امرأة كبيرة في السن ، مات زوجها وترك لها الكثير من جنيهات الفلاحة ومحصول الزراعة ، فاشترت الكثير من الأراضي الرخيصة ثم باعتها قطعاً صغيرة . هذا المكان الذي تقع فيه حارتهم يشبه

حفرة كبيرة ، تقع مباشرة جنوب شارع الخزان المعروف ، وشرق حارة أم سليم المرتفعة ، التي تستطيع من سطح أقصر بيت من بيوتها ، أن ترى الحفرة الواسعة التي يسمونها الشميسي بأحيائها الصغيرة المتجاورة وبيوتها الطينية الواطئة ، وفي موسم الأمطار ، يتحول الشارع المؤدي من أم سليم إلى الشميسي ، إلى نهر يصب في حارتهم المنخفضة ، فتبدو حارتهم بعد توقف الأمطار ، كأنها بركة واسعة . حارة منخفضة ، بل ربما هي أكثر حارات العالم انخفاضاً ، وكانوا يتألمون وهم يرون سكان الحارات المرتفعة يستمتعون بسقوط الأمطار ، بينما هم يكونون قي قمة الذعر ، وسط تكبير وتهليل سكان الحارة من كبار السن ، الذين يقولون إن تواصل الأمطار بسبب غضب الله ، وكان يتساءل عن أسباب هذه الغضبات المتواصلة ، وعن الذنب الذي اقترفوه .

في منتصف هذا الحي يقع بيت العائلة ، وكان الناس قد أكملوا بناء بيوت الطين بطريقة شبه منظمة ، لكن الشوارع لا تتجاوز عرض خمسة أمتار ، وهناك شوارع بعرض أقل ، وغير نافذة ، إذ تعترض الطريق بيوت أخرى .

سكان هذا الحي ، هم الذين بنوا بيوتهم الطينية ، بمساعدة الأقارب وبعض العمال بالأجرة ، وفي أغلب الأحوال لا تتجاوز مساحة البيت الطيني خمسين متراً من دور واحد ، بمساحة واسعة في وسطه ، تحيط بها غرف النوم والمطبخ ، وفي المدخل مجلس رجال

وحمام صغير .

هؤلاء الرجال الذين بنوا بيوتهم بسواعدهم القوية ، لم يكونوا يعرفون أنهم بنوا أيضاً شوارع الطفولة لأحفادهم ، لتكون محطتهم المهمة ، في هذه الحياة النجدية البسيطة والفقيرة والحالمة ، هنا في هذه الحارة ، الشوارع أهم من البيوت ، عرفوا ذلك فيما بعد ، فقد علمتهم كيف يهربون من بيوتهم ، لتفتح أذرعها لأحلامهم الصغيرة المتمردة ، وغرائزهم المكبوتة ، كانت الشوارع طويلة وضيقة ، وحولها البيوت الطينية المتلاصقة ، بارتفاع واحد تقريباً وكانت الأبواب الخشبية في الغالب مواربة ، لتتحد أصوات الجيران مع أصواتهم في أجواء عائلية بهيجة .

بيوت أهل والدته وأشقائها وشقيقاتها ، يحيطون بهم من كل جانب ، ولهذا كانت جدّته لأمه لا تفارق بيتهم ، كانت تتمتع بقوة شخصية ، يخافها والده ووالدته أيضاً ، وفي أعياد الفطر أو الأضحى ، تملأ جيبوها بالحلوى لتوزعها على أحفادها ، مثلما توزع البيض ناتج أعشاش دجاجها ، على بيوتهم أيضاً ، وكانت تقف بصرامة أمام كل ولد أو بنت من أحفادها يدّعي المرض لكي لا يذهب إلى المدرسة . يذكر أنه كان يقرأ لها بعض ما تعلمه في المدرسة ، وهي تضحك مجاملة بغير اهتمام ، مثلاً : «الولد النظيف منظره ظريف» ، ولم يكن يعرف معنى ظريف ، أو : «بلاد العرب أوطاني من الشام لتطوان»

وكان يفصل «العر» عن «بأوطاني» في نطق الجملة كاملة ، وحين بدأ خالـه يحضـر المجلات العـربيـة ، بدأ يقص صور العـواصم العـربيـة ويحفظها في دفتر خاص .

في سطح بيتهم ، المرشوش بالماء ، يجتمعون بعد صلاة المغرب ، ويأتي أخواله وزوجاتهم وأولادهم ، فيتذكرون أحوالهم صغاراً في قرى الرياض ، وأحياناً يغازل خاله الشيخ زوجته أمامهم ، فيخجلون . في تلك الأيام ، حين يعودون من المدرسة الابتدائية جائعين ، يهجمون على مخبأ الخبز يأكلونه مع التمر ، ثم يشربون ماء الزير ، وينامون حتى العصر ، ليبدأ مشوار الركض في الحارات حتى آذان المغرب ، وفي صباحات الجمعة ، يبدأ الناس مشوار تنظيف دورهم حتى الظهر ، وهم يركضون في الحارة الترابية الضيقة ، وكانت تبين الأبواب الخشبية الموارية ، المدهونة بكل الألوان ، ينبعث من فتحاتها أضواء المصابيح الواهنة ، وكان الرجال يخرجون ممتلئين برائحة المستنقعات والرطوبة ، يخرجون إلى المساجد في احتفاليات واضحة ، وبخور ، تكتسي على أثره الجدران بالألوان الفاتحة ، يخرجون بعد أن يستحموا بالماء والصابون والعطر ، يخرجون ليروا أنفسهم أو ليرَ بعضهم بعضاً ، وكانوا يستطيعون أن يشمّوا روائح الصابون تنبعث من أجساد الموظفين ، ومن أفواههم ، الموظفون وحدهم يقتنون الثياب والعطور ، والنساء يملأن المطابخ صخباً ، والأطفال في عريهم المعتاد ، والشباب يروحون

ويجيئون بثياب بيضاء ، والفتيات على أبواب الدور بأجهزة تسجيل صغيرة ، يستمعن لأغنيات طلال مداح ومحمد عبده وأم كلثوم ، كما ترى رجالاً يجلسون أمام الأبواب في جماعات ، يشربون الشاهي ويدخنون ، وخلفهم نساء يلغطن ، في وقت معبأ بالذهول الجميل ، وروائح الرطوبة وصباح الجمعة ، كأن هذه الطرق الضيقة معتمة ، أو كأن الحارة نصف مغمضة تسير في غير اتجاه ، مثل سفينة ثملة ، بينما يراها ، أحياناً ، تقف هناك خلف الباب ، بعيدة عن العيون ، يراها من البعد شاهقة مثل نخلة تطل من علو ، يليق بسموها على حارة تشبه طفلة ضائعة .

كان الناس في الحارة متآلفين إلى أقصى درجات الحب ، والغيرة ، والحسد أيضاً ، فكل بيت يريد أن يسبق لاقتناء جديد السوق ، الذي بدأ يهلّ على حياتهم من اليابان والصين وأوروبا ، بدأوا يتعرفون على التلفزيون والغسالة الكهربائية والثلاجة ، سنوات طويلة مضت كان الناس يقضون أمسياتها ، جوار أبواب بيوتهم ، يتناقلون الحكايات والأساطير والقصص وأحداث الحارة السارة والمحزنة ، رجال ونساء وأطفال ، يتبادلون الأحاديث والنكات والتسالي وكاسات الشاهي الصغيرة ، وبجوارهم يقع (دكان) الحي الذي يبيع قوالب الثلج والتونة والصلصة ، ومقابل الدكان يقع بيت أم محمود الفلسطينية التي تخيط للنساء ثيابهن ، ومكتب الشيخ إبراهيم العقاري الذي يجتمع فيه رجال الحارة وشيوخها .

في ليلة يذكرها ، حين أذن الفجر ، وهم نائمون على سطح البيت ، سمع صوتاً أنثوياً يهمس برفق : قم ، كأنه صدى صغير لصوت المؤذن ، يتردد في أذنه فيتذكر أزمنة الصباحات القديمة ، حتى إذا ما انتهيا ، الصوت والصدى ، شعر بيد باردة تربّت على رأسه : يجب أن يراك الناس في المسجد لكي يعرفوا أنك كبرت . .

وفي الشارع الرطب ، القارس البرودة ، بدأ يشم روائح كريهة كأنها بول قطط أو كلاب ، روائح قوية ونفاذة ، بالإمكان لمسها بأصابع اليد ، وضع كفيه في جيب ثوبه ، انحرف إلى شارع صغير ذي إضاءة صغيرة ، يقود إلى الشارع العام ، وهو يتأمل حركة الأطفال مطبوعة على أتربة الشارع بأقدامهم الصغيرة ، التي ركضت كثيراً ليلة البارحة ، وهي ترشق مصابيح الضوء الباهتة بالحجارة ، كان يمشي ويفتش في مشاعره العارية مثل طفل ولد تواً ، مشاعره الدخانية في أكثر الأحيان ، محاولاً إعادة كل شيء لم يفهمه إلى أبعاده الأليفة ، التي تمنحه القدرة على أن يعيش سعادة متوهمة ، لكن رائحة بول القطط والكلاب ، أخذت تفوح في الحارة مضمخة جدران البيوت بألوان مستحيلة ، وخارجة إلى فضاء المدينة لتملأه بحريق هائل ، وكانت الذاكرة تعود إلى الوراء ، ذاكرة البيت الآيل للسقوط ، والأب والأم والأخ والأخت والحارة ، ذاكرة سوداء تخلّف في داخله أثراً من الوحل والأدغال المظلمة ، يمشي في الحارات الباردة حتى تنتهي

الصلاة ، ثم يعود إلى البيت متطامناً وراغباً في أن يرمي نفسه من جديد ، في دفء الفراش .

ذات عصرية سوداء ، كانت الغيوم أقل انخفاضاً من السابق ، كانت سوداء متجهمة تثير الذعر ، وفي منتصف العصر تماماً بدأت الأمطار الشديدة تهطل ، خرج الجيران إلى الشوارع الضيقة ، يحفرون وسطها ، حتى تبتعد المياه عن أبواب بيوتهم الواطئة ، يحاولون أن يفتحوا لهذه المياه المتدفقة بغضب ، مجاري من الطين ، حتى تذهب إلى هناك ، فتلتقي مع مياه شوارع صغيرة أخرى ، ثم لا تعرف بعد ذلك ، أين يذهب هذا الموج الهادر ، وكان يتخيل المياه تتساءل وهي تتلاطم في الشارع الكبير ، أين الطريق ؟

الحقيقة أنه لا يوجد لها طريق ، فهي في النهاية ، سوف تظل محصورة وسط الشوارع ، لأن كل بيت رفع أصحابه مدخله بالطين ، أو الحجر ، وهكذا تحولت شوارع هذه الحارة إلى مياه راكدة .

في تلك العصرية الغاضبة والغامضة التي لا تُنسى ، حين انفجرت السماء ، بعد أن أضاءت البروق ودوت الرعود ، خرج الجميع من بيوتهم ، التي تشققت سقوفها الخشبية ، خوفاً من سقوطها . الجميع هربوا إلى المسجد المجاور ، فتكدسوا في ساحته المغطاة بسعف النخيل ، بينما رفع الرجال ثيابهم وبدأوا إنجاز مهامهم المعتادة ، إذ صعدوا لأسطح منازلهم لتغطية الثقوب بالأسمنت ، وهم جميعاً ، هؤلاء الرجال ، لا يريدون أن يروا بيوت آبائهم تتهاوى أمام أعينهم ،

فهم يعرفون أن لا مستقبل لهم بدون هذه البيوت الآيلة للسقوط ، في أية لحظة ممطرة ، وكل واحد ، يتذكر في هذه اللحظة بالذات ، تلك اللحظات التي ساعد فيها والده على بناء هذا البيت .

الآن . . في هذه الأوقات ، تنشط الذاكرة ، وتتراكم الهموم ، ممزوجة بالخوف ، فيبدو الإنسان مثل ريشة في مهب الريح .

في المسجد استراحت أمه ، على كومة من البطانيات التي نقلوها من البيت ، واتكأت على عمود طيني بأساس من الحجر ، وكان حولها وإلى جانبها الكثير من نساء وأطفال الحارة ، نصف عيونهم نوم ، ونصفها الآخر خوف .

ورأى جارتهم ، تقترب من أمه وتهمس لها ، هل بيتكم بأساس من حجر .

قالت أمه : لا ، قالت الجارة : سمعت أن البيت المجاور للمخبز سقط على أهله ظهر هذا اليوم .

قالت أمه : رحمتك يا رب .

ثم اقتربت الجارة من أمه ، وهو بجوارها يسمع أنفاسها اللاهثة .

قالت : هل سمعت إذاعة لندن صباح اليوم .

ردت أمه : لا .

واصلت الجارة : مسكوا مجموعة من المجرمين وسوف يقتلونهم في الصفاة يوم الجمعة .

سألت أمه : ماذا فعلوا .

قالت الجارة : يريدون أن تكون بلدنا جمهورية .

قالت أمه : جمهورية ؟

ردت الجارة : نعم . . يعني بلد بدون حكومة . . فوضى يعني . .

قالت أمه : الحمد لله الذي فضح أمرهم ورد كيدهم إلى نحورهم .

أمه تعلم أن الجارة تدرس عند امرأة لتحفيظ القرآن ، وهي التي علمتها كيف تدير مؤشر (الراديو) على إذاعة لندن لتستمع لأخبار العالم .

رفعت أمه رأسها إلى السماء ، التي كانت أكثر هدوءاً ، والتفتت للجارة .

قالت بصوت خافت وكانت تريد إخافة ابنها : ولدي يريدها جمهورية في بيتنا . . يعني فوضى .

اندهشت الجارة بعينيها الواسعتين والجميلتين ، ثم وضعت كف يدها على فمها .

قالت أمه : كلما أمنعه عن شيء يصرخ في وجهي : أنا حر .

التفتت الجارة للولد لأنها تعرف أنه المقصود ، تلاقت عيونهما ، ثم التفتت لأمه بسرعة وقالت : كلام عيال يا خالتي .

أضافت أمه : هذا الولد يحتاج إلى أن نكوي رأسه ، ثم ضحكت وهي تنظر إلى السماء ، وراحت تسبح وتهلّل وتتشهد ، كان ولدها

بجانب ابنة الجارة ، يلعب بأصابع يدها المرتعشة خوفاً .

عادوا إلى بيتهم بعد توقف الأمطار ، لكن السماء كانت نصف غائمة ، وفي الصباح كان كل شيء هادئاً ، كانت الألوان واضحة ، ورائحة مزيج الماء والطين تشعّ في آفاق الحارة . تأمل ضحى بيتهم المفتوح على السماء ، بعد أن رفض الذهاب للمدرسة ، وتأمل هذا النور الذي يسقط على بيتهم من الشرق طازجاً وحميماً ، وعند الظهر هرب إلى الغرفة الصغيرة بعد أن سمع بدخول والده إلى البيت ، وكانت النافذة الصغيرة تُسقط على وسط الغرفة بقعة ضوء رائعة ، ما تلبث الغيوم أن تمرّ أمامها ، تختفي ثم تعود ، فبدأ يرسم أشياء كثيرة على الأوراق البيضاء أمامه ، كان يفكر أنه لا يكره المدرسة فقط بل ربما ، يكره البيت أحياناً بشكل غامض ، كانت جارتهم أم أميرة قد خرجت من بيتهم ، بعد أن تبادلت مع أمه أخبار سقوط بعض البيوت ، وقبل ذلك قرصت أذنه ، وقالت بصوت هامس : غداً سوف تذهب إلى المدرسة . قال : طيب ، ثم تناول الأقلام الملونة وبدأ يرسم وجهاً لابنتها الجميلة ، كان فرحاً لأن بيتهم يقع مقابل باب منزلهم مباشرة ، حتى أنه حين يُفتح بابهم يستطيع أن يرى كامل بيتهم . وأحياناً تأتي البنت إليهم ، حين ترى الباب مفتوحاً ، فتسألها أمه عن أهلها ، وعن جدتهم التي تحفظ القرآن وهي أمية وكفيفة . كانت البنت وإخوانها الصغار ينظفون الشارع ، صباح كل خميس ، ثم

يرشونه بالماء حتى يحمرّ التراب وينام ، فلا يحركه الهواء ، لتنبعث من الشارع رائحة رطوبة لذيذة ، وحين يفرغون من هذا العمل يدخلون إلى بيتهم ، يستحمون ثم يلبسون ملابس نظيفة ، ويصطفون على عتبة باب بيتهم يتأملون حركة الناس في الحارة .

يذكر ذات صباح باكر ، قبل أن يذهب إلى المخبز القريب ، أنه رأى جارتهم ، تأخذ من (عتبة) الجيران أشياء لم يرها جيداً ، ثم لاذت بالفرار إلى بيتها حين رأته . سأل أمه عن ذلك لم تجب ، وشعر أنها تخبئ شيئاً تعرفه ، عن هذا الأمر الغامض ، ولا يعرف كيف أن هذه الحادثة ، جعلته يفكر بعالم السحر والشعوذة ، فرسم جوار أم الجيران مصباحاً سحرياً ، وداخله طفلة صغيرة تحدق في الخارج بعيون قوية ، وفي الجانب الآخر من اللوحة البيضاء ، رسم وجهاً مدوراً وجميلاً يطل على الحارة من الأعالي وكتب بداخله : أميرة .

استمر الأفق الغربي يلوح بالسواد الذي ما يلبث أن يمتد ويغطي سماء المدينة . النهار ظلام ، والوجوه في كل مكان تشعر بسعادة فيّاضة مصحوبة بخوف ، وهو بدأ يتعامل مع وقته وأشياء بيتهم بروح أخرى ، روح جديدة ، واضحة ومنتشية بعد أن كبر قليلاً ، يأخذ كأس الشاهي معطرا بالليمون ، ويخرج إلى الشارع يتأمل سحاباً جديداً ، يكاد يهطل على جدران البيوت المتلاصقة ، ويتأمل ضباباً قريباً . يجلس على عتبة الباب ، حتى وقف وجه أسمر وغريب أمامه ، وسأله

عن اسم هذه الحارة .

– قال له : الشميسي الجديد .

– قال : هذه هي . . ثم سأله : هل تعرف فلاناً .

– لا أعرفه .

– إنه يعمل سائقاً في إحدى الدوائر الحكومية وله بيت في هذه الحارة .

– كرر له : لا أعرفه .

– قال : إنه رجل طيب وفقير . .

وأضاف بطريقة غريبة في التحدث : هذا الرجل اقترض منه أخي مبلغاً من المال . .

ومنذ توفي أخي وأنا أبحث عن هذا الرجل . . ثم . . توقف عن الكلام . . وذهب بدأت السماء تمطر ، والأرض ترابها يستحيل إلى طين ، ذي مسارات مائية صغيرة ودقيقة ، كان الجو مظلماً وجميلاً وغامضاً ، ويزداد إظلاماً والمطر ينزل خفيفاً بشكل موح ، والجيران بدأوا يطلّون برؤوسهم الخائفة من خلال أبواب بيوتهم الموارية ، والرجل يعود من جديد ، وقف أمامه مرة أخرى بهيئته الغريبة ، يلبس ثوباً شتوياً بلون أخضر ، له ياقة طويلة تصل إلى أذنيه ، وكوفية صغيرة غريبة الشكل ، وحين يتحدث تشعر كما لو أنه فاقد القدرة على النطق ، يتحدث بتلعثم وبحروف وكلمات متقطعة تخرج من لسانه بصعوبة .

كان أمامه يحاول إخفاء ابتسامة واضحة ، ولكنه سأله إن كان لديهم في البيت أشياء قديمة لا يحتاجونها .

قال له : مثل ماذا ؟ .

قال وهو يضحك بخجل : أوان . . ملابس . أضاف : أنت تعرف . . البيوت في الغالب فيها مثل هذه الأشياء . . قال له : ليس لدينا مثل هذه الأشياء . لكنه عاد وقال بعد صمت ثقيل وتردد : هل تعرف مكاناً أعمل به . . رد : لا . . قال : لقد خرجت من السجن . . لكنني لم أجد عملاً . . وأضاف : أنا لست مجرماً . . اقترضت مبلغاً من المال ولم أستطع رده . . ولكن . .

قال له : الله معك . .

قال الرجل وهو يخرج دفتراً صغيراً من حقيبته الجلدية : هل تريد أن أسجل أسمك في هذا . . أشار إلى الدفتر الصغير وهو يضحك . .

سأله : ما هذا .

قال : لمساعدة الفقراء . . تدفع مبلغاً ثم أسجل اسمك .

قال له : من أنت . .

قال : فاعل خير .

قال له : شكراً . . لا نريد .

ثم مضى الرجل يلهو مع الأطفال ويمشي في الشوارع الموحلة ، كما لو أنه يمشي على أرصفة مغبرة ، وكان يلتفت له وينظر بعينين مخيفتين .

بعد عدة ليال غامضة ، وكان مستغرقاً في النوم ، رأى قطاً غريباً يجثو قرب فراشه ، ويبادله نظرة نارية صارمة ، رأى في وجه القط وجهاً مشوهاً لذلك الرجل الغريب ، تحرك القط في مكانه قليلاً ، تحفّز أمامه أكثر ، أصدر القط مواء بطيئاً وثقيلاً ومخيفاً ، فراح يرقب حركته محاذراً من أن يدهمه هكذا فجأة ثم يقفز في وجهه ، كان يرقبه حتى أطلق مواء بطيئاً آخر ، فعوى ببطء في وجهه ، رأى الشر يتطاير من عينيه الزرقاوين فابتعد قليلاً ، لكنه أطلق مواء صارخاً فعوى عواء عظيماً ثم صحا ، وفي الصباح كان يسأل نفسه من أين يأتي هؤلاء لحارتنا ؟

الصورة تأتي من البعد واضحة مثل قمر مكتمل ، وكان الوقت أصيلاً ساحراً ، فترى النساء عائدات من بيوت الجيران فيما يشبه الركض ، بعباءات سوداء ، على الأرض الترابية ، وفي الشوارع الواسعة المؤدية إلى الشوارع الصغيرة التي تحتضن بيوتهن ، كما ترى الأطفال يثيرون الغبار بركضهم المتواصل ، والشباب يتجمعون في أركان الشوارع ، والرجال يعودون من الأسواق الشعبية التي تبيع بالرخيص ، وتسمع في أماكن أخرى همسات خفيفة قادمة ، من خلف الأبواب الموارية للبيوت ، لبنات صغيرات وشابات ، يرصدن حركة هذه الشوارع الصغيرة بدقة ، ويستمعن لأغنيات محلية معروفة .

في مكان آخر ، هناك في طرف الشارع الصغير بيت طيني منزوٍ ، بيت صغير بغرفة مفتوحة على حمام وعلى (حوش) صغير مغطى بسعف النخل ، بينما مدرس النصوص العربية ، يرقد على سرير خشبي يتوسط الغرفة ، التي تطل من نافذة واطئة ، على الشارع ، كان راقداً وباب الغرفة موصد والعالم خلف هذا الباب غامض . . غامض . . .

وكانت أشعة من بقايا شمس العصر تنفذ إلى الغرفة ، من خلال النافذة الواطئة .

ربما ينام أخيراً . . .

يغمض عينيه السحيقتين وينام ، يدخل عميق الحلم وينسى أحزانه ، يدخل وقتاً آخر ينسيه متاعبه ، ربما هناك يخرج إنساناً مبتهجاً يحب الحياة ، يمشي كثيراً في الشوارع ، يلف المحلات التجارية ويتفرج على الناس .

ربما هناك يرى حياته فيفرح ، يقابل أحبابه الذين غابوا ويضحك معهم ، ربما هناك يركض خلف أحلامه القديمة ، لعل بها تطمئن نفسه المتعبة ، أو لعله يلملم شتات أشيائه التي تبعثرت أو تكسرت منذ زمن طويل .

عيناه معلقتان في السقف ، وخدّه يضيء تحت أشعة شمس تودع ، وجسده الفارع ، يهتز اهتزازات خفيفة ، كلما رمشت عيناه ، وهو يرهف السمع لكل الأصوات التي تصله من خارج عالمه الصغير ،

بعد أن دوّخ رأسه البارحة بخمس كؤوس متواصلة .

ربما ينام الآن . .

أو ربما يترك فراشه كعادته مهدود البدن . . يقف أمام النافذة مرتعشاً وهو يبكي . .

ربما ينام الآن . . ربما ينام إلى الأبد .

زوجة مدرس النصوص العربية الذي ترك المدرسة . . سألته :

- ماذا جرى لكم يا رجال ؟

- سألها : ماذا ؟

قالت : المريض والمتعب والذي لا يترك داره . .

لكنه استمر راقداً دون أن يشعر بأي شيء ، سوى حزن ذاكرة انفردت بالتعب الطويل .

فحصه طبيب ثم حقنه بمصل وسأله بعد ذلك : بماذا تشعر الآن ؟

أغمض الرجل عينيه ، وقال بصوت له رائحة الموت ، أشعر كما لو أنني أريد أن . . . أنام . وهو يعلم أنه أفاق للتو .

أما شيخ المسجد ، فقد خلع ثياب المريض ، وصب على جسده ماء الزعفران ، واستمر يقرأ آيات القرآن حتى أصابه الإعياء ، لأن الرجل المريض لم يكترث لشيء وكل ما فعله وهو راقد ، أن ألقى نظرة على وجه الشيخ وكانت نظرة اندهاش ، ثم مال بوجهه عنه ونام ، حتى ارتفعت رائحة الحزن والغضب في الحارة ، وأخذت تفوح ،

وتكسو الجدران بأثرها الرمادي الغامض ، فقال الناس أشياء كثيرة عن الحياة وعن غضب الله ، أما الشيخ ، فقد خرج من بيت المريض يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

بينما هناك ، في غرفة مضيئة دائماً ، أعلى هذا البيت الطيني الكبير ، يسكن مدرس التربية الفنية ، شاب أحب غرفته فعبأها باللوحات ، يستمع للإذاعات العربية ويرسم ، وحين يزورونه يتحدث عن العالم العربي ، كما لو أنه يتحدث عن قريته الصغيرة التي يحبها ، في عينيه خوف من كل شيء ، . . لهذا يهرب منه إلى الرسم والكتابة ، وشباب الحارة يقرأون ما يكتبه ، أو يتفرجون على رسوماته دون أن يفهموا شيئاً ، وفي الليل المتأخر ، يأخذونه معهم إلى شارع الحارة ، يتناولون العشاء سوية ، ثم يعودون ، أو يذهب إلى مدرس العربي ، يتسامر معه ، أو يشرب معه ، حتى آخر الليل ، قبل أن يغلق مدرس العربي بابه ويعتزل الناس .

طعم السكر

كان قد بدأ يفكر بالجنس بعنف ، منذ تلك اللحظة التي كانت مثل شرارة أشعلت جسده حتى الآن ، في صباح أحد أيام الجمع ، حين ذهب إلى مخبز الحارة ، فوجد أنه مليء بالرجال والأولاد والبنات ينتظرون في طابور طويل ، وقف معهم ينتظر دوره ، وبعد عشر دقائق اقتحمت بنت أصغر منه قليلاً الطابور ، ووقفت بين شقيقها الصغير وبينه ، حتى تلامس جسداهما ، فلفحت رائحة الشامبو المعطر وجهه ، بعد أن لامس شعرها أنفه ، ابتعد قليلاً ، لكنها كانت تتراجع لكي تفسح مكاناً لشقيقها ، وعلى الفور تذكر أميرة ، ابنة الجارة ، نفس العمر ونفس الطول ونفس الشكل الدقيق ، كانت لحظات جديدة عامرة بالحب والغموض والإثارة ، أحسّ معها بعمق الحياة التي يعيشها الآن ، وشعر بدم جديد يمشي الآن في عروقه الناشفة ، في هذا الطابور الملتهب ، ولم يفسد تلك اللحظات إلاَّ وجود أحد زملائه في المدرسة خلفه مباشرة ، كان يتحرش به ، أو يتضاحك في وجهه ، يتذكر أنه يتهمه بالغباء لأنه يبدو هادئاً وصامتاً في المدرسة ،

لكنه كان أفضل منه في الدراسة ، وكان يغضب إذا قال لـه إنك تربية شوارع . الآن زميله يحاول أن يأخذ مكانه في المخبز ، وهو لم يفهم ماذا يريد ، على وجه التحديد ، لم يفهم ، بسبب تباطئه في الفهم ، لأن الولد يريد الالتصاق بالبنت . فهم بعد ذلك ، وقرر على الفور أن يضربه على وجهه ، وفي هذه اللحظة التي قرر فيها ارتكاب هذا الفعل ، وكان يلتفت إلى زميله ببطء لتنفيذ ما فكر به ، فوجئ بضربة قوية على رأسه أشعرته بالدوار ، واحمّر وجهه خجلاً ، ثم ترك المخبز يريد أن يلحق به ، لكن زميله هرب ، فعاد إلى مكانه ، وهو ينظر للجميع حوله ، بخجل ، وبعيون شبه دامعة .

في ذلك اليوم ، بعد تلك الحادثة ، التي وقعت صباحاً في مخبز الحارة ، كان بدأ يسأل نفسه أسئلة كثيرة عن معنى صمته وهدوئه : لماذا لا أبدأ في الدفاع عن نفسي قبل هجوم أي ولد ؟ ، ولهذا قرر أن يصفع هذا الولد ، حال مقابلته له يوم السبت في المدرسة ، وفكر أن يلتفت كثيراً إلى أميرة وأن يقترب منها ، ربما يشم رائحة الشامبو المعطر في شعرها .

خلال أيام طويلة سيطرت عليه فكرة أن يُقبّلها ، وظلت هذه الفكرة معه عدة أشهر دون أن ينفذها ، لكنها شعرت ، فقط ، أنه بدأ يهتم بها ، ويكون معها أكثر لطفاً ، ولم تفهم بالتأكيد معنى كل هذا .

هل أنا سعيد . . هل أنا مبسوط في حياتي

هذه هي أسئلته اليومية التي لم يملّ منها على الإطلاق . .
أما الإجابات . . فقد ملأت أكواماً من الأوراق ، التي حفظها كأنها صكوك ملكية ، يعود لها كلما شعر بالقلق والتعاسة ، فأقنع نفسه أن كل الناس يعيشون هذه المشاعر المتقاربة بين الفرح والحزن . . فدخل مرحلة قراءة كل شيء .

بدأت أميرة تصبح صديقة له ، بدأ يدخل بيتهم ، وهي بدأت تتردد عليهم ، وذات صباح باكر من أيام العطلة الصيفية ، ركض إلى عتبة الباب كعادته ، فوجدها هناك ، قد تركت باب بيتهم مواربا ، وجلست إلى جوار عتبة بابهم ، كانت تتسلى بالتراب المعجون بالماء ، وترسم منه عرائس وعرسان ، جلس بجانبها ، فحكت له عن أهل الحارة ، وهم داخل منازلهم ماذا يفعلون ، وعن أي شيء يتحدثون ، وهو يتأمل هذه البنت النحيفة التي تتحرك أمامه بروح خفيفة ، وشقاوة خجولة في عينيها ، بقميص نومها الوردي القصير والمتكسر ، وجديلتها المربوطة مثل ذيل المهرة الصغيرة ، كانت تصغره بعام ، لكنها تعرف أشياء كثيرة ، حكت له عن جارهم الذي يعمل في البلدية ويضرب زوجته عندما تغسل دارهم بالماء ، الذي يخرج إلى الشارع ، وعن المرأة التي تقرأ على النفوس المريضة ، وعن الجار الذي تزوج من

هندية صغيرة ، وعن بنت مسكونة بالجن ، قالوا إن روحها عندما تنام تملأ فضاء الحارة برائحة غريبة ، وعن جار آخر ، فصلوه من الجامعة ، فحمل بيده مذياعه وبيده الأخرى حقيبة ملابسه الصغيرة ، بعد أن أطلق شعر رأسه الطويل ، وهجر الحارة والمدينة والوطن ، ولم يعد منذ سنوات طويلة ، ولا زالت أمه تبكي عليه ، حكت له عن أشياء كثيرة في أمسيات مقمرة أو معتمة أو سوداء ، وفي الغالب نهارات لا يرون فيها من الشمس غير سطوع يبهر القلوب الكئيبة . كانت وهي تتحدث ترتجف أطرافها ثم كل جسدها ، كانت ناعمة وجميلة ، وفي صوتها حنين ، وكانا يتشاجران أحياناً ، كان يمازحها بنباله الصغيرة ، وكانت حين تغضب تشد شعر رأسه حتى يكاد يبكي ، ثم تهرب ، ومرة أعطاها جهاز التسجيل الذي اشترته والدته له بعد النجاح إلى الصف السادس الابتدائي ، تضع الجهاز على عتبة باب بيتهم ثم ترفع الصوت لتصدح أغاني طلال مداح وعبادي الجوهر ، ينظر في الجهة الأخرى ، فيرى والده قادماً من السوق ، على رأسه كيس الخضار ، وبين يديه ديك أحمر ، يأخذ جهاز التسجيل ويهرب إلى البيت ، يدخل والده ، وخلفه أميرة المبهورة بهذا الطير الكبير ، يرمي الأب الديك في وسط الدار ، يركض مذعوراً ليتطاير ريشه في فضاء البيت .

يقترب منه والده ويصفعه ، كعادته مساء كل يوم ، يقول له : سوف أسجنك لو أخرجت المسجل للشارع مرة أخرى ، بكى ثم راح

يبحث عن الديك بعينين دامعتين ، وشعر أن أميرة أشفقت عليه ، فزاد حرجه ، ناداها بصوت باكٍ ، تعالي ، ثم حاصرا الديك ومعهما أخوه وأخته ، في زاوية من البيت حتى استكان ، وراحوا يتأملونه . ديك ضخم يشبه الطاووس ، ينظر إليهم كأنه رجل ، وكان لوالده مثل هذه الحركات الغريبة ، يدخل إلى السوق عصراً ، وقبل المغرب يعود مشياً على الأقدام بكائن عجيب ، داجن ، تيس ، أرنب ، حمام ، وهذه المرة ديك ، ديك محاصر الآن في زاوية ، وقد بدأت المواجهة بينهم ، وقفوا جميعاً أمام بعض ، وكل واحد ينظر للآخر كما لو أنه غريم له ، حتى اقتربت منه أخيراً ، استمالته فمال لها ، ثم فجأة استكان الديك في حضنها ، وبدأ يتأمل وجهها ، ثم ينظر في وجهه بعداء ، حتى قالت له : أغمض عينيك حتى أجعل الديك يقبّلك ، أغمض عينيه وشعر بمنقار الديك يتحسس وجهه ، ظل مغمضاً عينيه حتى صدر أمر حبيبته ، افتح عينيك ، فتحهما ، وكان الديك بانتظاره ، يقفز من حضنها وينقر عينه ، بكى حتى أظلم الليل ، والبنت هربت إلى بيت أهلها ، فوضعت أمه الملح الذائب بالماء في عينيه ، ثم نام شبه مريض وبجواره أخوه وأخته الصغيران ، وفي وسط الليل استيقظ ، فرأى أن الجميع قد ناموا ، ذهب للمطبخ ، تناول قطعة خبز وحشاها بالسكر ، وذهب إلى الغرفة الصغيرة ، فتح التلفزيون وبدأ يأكل ، كانت حصيرة النايلون الملونة والمفروشة في الغرفة قد انكمشت على نفسها ، فبانت عورة الأرض ، وكشفت عن أرضية

أسمنتية مقشورة ومحفورة كأنها أخاديد على كف أرض مائلة ، كان وهو جالس يشعر بانحناء الغرفة ، يجلس مائلاً إذ تميل الأرض باتجاه الباب ، وكان غارقاً في تأمل هذه الصندوق الذي يصدر أصواتاً ويُظهر صوراً تتحرك ، كان بيده قطعة خبز بالسكر ، وفي اليد الأخرى زجاجة (كولا) ، وبجانبه كتاب النصوص العربية ، لكي يحفظ أنشودة حرب لعنترة بن شداد ، وكان طلال مداح في ذروة المجد يغني ، عندما انطفأ النور كالعادة ، فأظلمت شاشة التلفزيون وأظلمت الغرفة ، وغرق البيت في ظلام دامس ، والحارة أيضاً أسلمت نفسها لخيوط الظلام ، انطفأ كل شيء ، نهض من مكانه مرتبكاً ، وبدأ يتعثر خارجاً من ميول الحجرة ، يجرجر خوفه ، فتحضنه ساحة البيت ، تلمّس العمود الطيني الذي يقع في منتصفها ، ثم قبض عليه ، التفت إلى اليسار قليلاً ، فرأى أمه ترقد في زاوية من مساحة البيت المفتوحة على الفضاء القمري ، وحولها أخوه وأخته ، وكان والده نائماً في السطح ، ولم يعرف أن أمه كانت يقظة ، إلا حين سمعها تسأله :

إلى أين ؟ . .

قال : إلى الشارع .

انعطف يميناً ، ثم مشى مروراً بالحمام المخلوع الباب ، وكان يتنفس رائحة الجو الصيفي الخانق ، حتى وصل إلى الباب المفضي إلى الخارج مباشرة ، فتحه فدهمه تيار هواء لذيذ ، وكان قد سمع بعض الأصوات

الخافتة ، تأتي من بيوت الجيران المظلمة ، التي يخرج من بعضها أنوار باهتة لشمعة أو سراج (قاز) ، وأصوات أخرى تأتي من نهاية الشارع الصغير ، إذ يتجمع بعض شباب الحارة ، يتحدثون ويدخنون . جلس على عتبة باب بيتهم وبيده خبزة السكر ، وكان يشعر بألم حول عينه التي نقرها الديك ، حتى رأى حجراً صغيراً يتدحرج أمامه وسط هذا الهدوء العميق ، رفع رأسه ليرى خط سير هذا الحجر ، فوجد باب الجيران المقابل موارباً ، ولاحظ حركة خفيفة داخل ظلامه ، نهض ، مشى إلى باب الجيران المقابل ، توقف أمام الفتحة المظلمة ، وراح بفضول يتطلع إلى الداخل فلم يرَ أحداً ، تقدم أكثر برأسه ، فوجد يداً تأتي من أعماق الظلام ، لتنتزع قلبه من مكانه ، قبل أن تشد شعر رأسه إلى الداخل ، ثم يداً أخرى على فمه ، مع ضحكة صغيرة ، انطلقت بهمس رغماً عنها ، لكن أنفاسه بدأت تتلاحق بقوة ، ونبض قلبه يسرع الخطو ، وجسده يرتعش كأنه ضوء يهتز ، مكث لثوان ، مستمتعاً بنعومة الأصابع وطراوتها على فمه ، رفع يده فاصطدمت بالصدر اللين ، وبدأ يشعر برغبة في تحسس هذا الجسد الذي أمامه ، فرفع كفه الأخرى ببطء ، ولف ذراعيه على الكتفين اللينتين ، ثم ضم الجسد الناعم إلى صدره ، فاصطدم الوجهان الصغيران بنعومة ، وشم رائحة أنفاسها فتذكر فتاة المخبز ، وارتفعت حدة كل شيء ، كانت تحاول الإفلات بهدوء ، وهو يتضاحك معها بهمس ، كي لا تكشف رغبته الحقيقية ، ثم اقترب منها أكثر محاولاً الالتصاق بها ، وهي

تحاول الفرار حتى قبض عليها لحظات ، أجلسها على العتبة الأولى لدرج بيتهم الداخلي ، ورفع ملابسها ، وقبلّها في كل أنحاء جسدها العاري خلال دقائق ، قبل إضاءة النور ، في ذروة اللذة ، فواجهته ساحة بيتهم ، رأى أهلها ينامون أيضاً في ركن وسط البيت ، نفس المكان الذي أخذه أهله لنومهم ، تأمل وجهها المرتبك وجسدها الناضح بالعرق ، فرأى على شفتيها آثار خبز وسكر ، تركها وركض إلى الشارع ، ثم إلى بيتهم ، أغلق الباب وهو يقطر عرقاً ، كانت أمه قد أغلقت أنوار البيت وعادت للنوم ، فذهب إلى غرفة التلفزيون المظلمة ، رمى جسده على حصيرة النايلون الملونة ، وبسرعة راح في حالة نوم يقظ ، كان طعم السكر في فمه مازال قوياً ، وكان يراها بجانبه ، اقترب منها حتى اصطدم بصدرها الناعم ، فرأى وجهها القمري الطفل أمام وجهه ، قبّلها بوله ، فأحس طعم سكرها في ريقه ، ولأول مرة شعر أنه على وشك القذف ، أفاق في صباح شقي على ثياب مبلولة ، وعلى إحساس حاد وعميق بالبهجة والخوف ، فواصل النوم يترصد ما في هذه اللحظة من متعة نادرة ، بفيض من الحبور والدهشة .

خلال هذه الفترة بدأ يكره شباب الحارة الحفاة ، ربما لأنه لم يكن بمستوى عزيمتهم وقدرتهم على العراك الدائم ، كانوا في حالة عراك دائمة كالقرود الطليقة ، وبشكل يجعله في حال عدم وصل دائمة معهم ، كانوا يحاولون التواصل وهو يعتذر .

ربما أيضاً ، كان يكرههم بسبب انحراف بعضهم ، فقد بدأوا يأكلون حبوب الهلوسة التي يحضرها (شاب غريب) ، من حي منفوحة . ورأى ذات مساء ثلاثة من أولاد الحارة ، في صورة صدمته . كان الوقت ما بين المغرب والعشاء ، حين كان خارجاً من البيت لشراء أشياء من المكتبة لأخته ، ففي الطريق من بيتهم إلى الشارع الرئيسي العام ، كان هناك بيت مهجور يقع قبل الحفرة التي ابتلعت ذلك الطفل ، هذا البيت الكبير المهجور ، كان له باب مخلوع ، وحين حاذى باب هذا البيت ، سمع أصواتاً هامسة تصدر من الداخل ، توقف قليلاً فتبين صوت ابن الجيران منصور ، اقترب من الباب ، فرأى منصور ومعه ولد آخر يعرف وجهه ولا يعرف اسمه ، كان يأتي إلى شارعهم دائماً لزيارة منصور ، كان منصور وصاحبه قد رفعا ثوبيهما ، ويقف أمامهما مباشرة ولد ثالث لا يعرفه وقد تعرى تماماً . تراجع للخلف بعد أن لمحاه ، ثم واصل مشواره ، وهو يفكر بهذه الصورة التي لا يعرف لماذا هزت كيانه بالرعب ، ليس اشمئزازاً ولكن ، خوفاً ، من فكرة أن يكون واحداً منهم في يوم من الأيام .

دخل فترة المراهقة بهدوء ، لكن بحالة تنافر واضحة مع والده ، لم يكن عداءً ما بينهم ، لكن عدم اتفاق دائم على كل شيء ، وبدأ يحس بميل كبير ناحية الأوراق والأقلام ، والنساء ، اشترى دفتراً أزرقَ

وأقلاماً ملونة ، وبدأ يكتب كل شيء يمر في حياته ، أحداث عائلية ، حالات ولادة في بيوت الأقارب ، مباريات كرة القدم الهامة التي كان يحضرها في الملعب رغماً عن والده ، الأمطار القوية التي تهز قلوبهم خوفاً في أغلب الأحيان ، وأيضاً يحفظ قصائد الشعر من الجرائد والمجلات في هذا الدفتر ، ثم لاحظ ظهور حب الشباب على وجهه ، وتغير صوته ، وبدأ يشعر بالإحراج والتعرق لمجرد حديث عابر مع امرأة ، وحين بدأ التعود على هذا الوضع ، لاحظ اختفاء أميرة من الشارع ، أصبح خروجها قليلاً ، وحين تخرج إلى عتبة باب بيتهم تضع منديلاً ورديا على شعر رأسها ، فتبدو أكثر جمالاً وأكثر فتنة ، وكانت حين يقابلها في الشارع مصادفة ، تهرب بسرعة إلى البيت وهي تضحك ، بعد أن بدأ صدرها في التعبير عن ذاته .

بدأ يترك البيت لعدة أيام مع بعض الأصدقاء من خارج الحارة ، بالذات في الشتاء ، حين كانوا يقيمون مخيماً خارج مدينة الرياض ، بعد أن اشترى جارهم لابنه وليد سيارة صغيرة ، تعلما عليها القيادة ، وبدأوا الانطلاق نحو الحياة . في هذا المخيم تعلموا التدخين والشرب والسهر والنساء أحياناً ، وسافروا بهذه السيارة الصغيرة إلى أغلب مدن البلاد ، وإلى الكويت والبصرة ، من أجل (فريدة) ، والسباحة في شط العرب ، قبل حرب العراق وإيران ، يحمل معه دائماً عالمه الخاص ، أغنياته المفضلة ، كتّابه المفضلين ، صحفه المفضلة ، كان

التدخين والشرب والسهر والسفر في عطلات الصيف جزءاً من حال تمرد غير مفهومة ، رغبة في الابتعاد عن حال الرتابة التي تعيشها حارتهم لا أكثر ، وهي حال الملل التي جعلتهم ذات مساء ، وهم في مقهى شعبي ، يفكرون في كتابة أوراق يطالبون فيها بأشياء كثيرة ، دون الإقدام على الفعل ، لسبب بسيط ، أنهم قرروا في لحظة الملل تلك ، أن يسافروا إلى الكويت لسبب تافه ، وهو أن يضعوا مراتب جلد لسيارة صديقهم وليد الجديدة .

قد تكون أحلام اليقظة هي ملاذه الوحيد ، إنها الجحر الآمن الذي يهرب إليه حين يشعر بملل ورتابة أجواء الكبت المحيطة بحياته ، كان يرى أن كل شيء يسير وفق قوانين صارمة ، حتى في (الكلام) مع الناس يفترض أن تقول (كذا) . . . في الموقف كذا ، ولا تقول (كذا) في الموقف كذا . . . ، بمعنى ، يجب أن تحفظ لغتهم جيداً ، وتعرف كيف تردد كلام الرجال مثل الببغاء ، حتى لا يقال إنك لست رجلاً ، لكن أحلام اليقظة تقرّبه من ذاته الحقيقية ، من ذاته المنطلقة ، كان يتخيل الرياض خالية ، إلاّ من الناس الذين يراهم أكثر قرباً لروحه ، وكان يتخيل نساء صغيرات يعبّرن دائماً عن حبهن له ، مثلما كان يحلم بأبٍ آخر . . وحياة أخرى مليئة بأميرة وبطعم السكر .

قبل سنوات قال لأمه ، وقد وضع رأسه على فخذها ، بوضع

نصف نائم ، بينما كانت تتحدث مع والده وأخواله : هل لربي أب ؟
قالت : اسكت يا ولد . .
ثم . . نام

هذه اللقطة لا تفارق ذاكرته على الإطلاق ، صار فيما بعد يحاول أن يقود ذاكرته إلى اللقطات الأكثر إرهاباً لقلبه ، مثل صورة منصور وصاحبه والولد الذي تعرى أمامهما ، ولهذا سجل هذه الصور في دفتره الخاص حين كبر قليلاً . في ذلك الوقت كان والده يتحدث عن أشياء كثيرة ، وكانت أمه تردد : سبحان الله . . سبحان الله ، بينما كان خاله الكبير يتحدث كأنه يخطب في مسجد ، حتى أنه نهره بقوة حين سأل أمه ، ذلك السؤال عن الله .

في المسلسل التلفزيوني يقول الناس لبعضهم صباح الخير . .

ويستغرب لماذا لا نتحدث مثلما يتحدثون في التلفزيون ، كان يظن أن والده وحده يرفع صوته على أمه ، حتى سمع خاله يصرخ في وجهها ذات يوم ، وكان يريد في تلك اللحظة أن يضربه . حتى آباء الجيران وأخوالهم وأعمامهم ، لا يقولون صباح الخير لبعض ، ودائماً ما ترتفع أصواتهم بشكل مخيف .
جميعهم يبدون في شكل مختلف ، حين يزورهم الأغنياء من

الأقارب ، يهتمون بهم بشكل مبالغ فيه ، ولهذا لم يشعر بود ناحية هؤلاء الأقارب ، الذين كانوا يبدون كأنهم ممثلون في التلفزيون ، وكان يتعمد أن يذاكر دروسه وسطهم ، لكي يعرفوا أنه متعلم مثلهم .

دائماً كان يملأ دفاتره وكتبه بأفضل الصور والكتابات التي ينقلها بالحرف من الصحف والمجلات . .

على سفرة الأكل ، تبدأ المشاكل الحقيقية :

- لماذا لا تأكل مثل (الأوادم) . .

أو . . مثلاً :

- هل قلت . . بسم الله . . يا حمار . .

في المسجد ، بعد صلاة العصر ، الشيخ يخطب ، شيخ يعرفونه ، جاء من خارج الحارة ، ويبدأ الأولاد في التسلية بالاستماع له ، وأحياناً يتبادل الأولاد نظرات صغيرة ثم يضحكون ، وفجأة ، صفعة على الرقبة من الخلف ، يلتفت للخلف ، من أرسلها ، لا يعرف ، كل من خلفك هم : آباء . . . وكيف يكون أباً وهو لا يضرب . .

يفكر :

جميعنا هكذا ، نحن والجيران ، وأقرباء الجيران ، الابتسامات واللغة المهذبة نقدمها للآخرين فقط ، بينما ، نحن ، نتبادل الشتائم والضرب . الكلام في السياسة ممنوع ، لأن الجدران لها آذان ، صورة شاعرية ، جدران وآذان ، و . . . إلى آخره .

خوف . . من كل شيء . .

مرة . . دخلت شقيقته ومعها شقيقه ، إلى غرفته ، أسمعهم شريطاً جديداً وأعطاهم مجلات أطفال . .

دخل والده : علمهم أصول الدين يا فاسد . .

هنا سأله شقيقه الصغير :

هل الغناء حرام . .

قال له : إذا أكملت دراستك . . ونجحت ، اقرأ الأحاديث عن الرسول وسوف تعرف بنفسك . .

حين درس خالد في الجامعة ، صار له مكافأة شهرية ، خجل والده أن يأخذها ، قال له : لست محتاجاً لمكافأتك .

تساءل خالد : هل كان يفكر بأخذها . . أيضاً

هنا بدأ والده يكبر . . ويتعب . .
وأخته عفاف . . صارت مراهقة جميلة .
وأخوه أحمد . . دخل عالم الوسواس الديني .
كبروا جميعاً ، ربما في لحظة واحدة ، لحظة ليست زمنية ، لكنها طبعت لحظاتها الماضية في جدران المكان . . .

من المكافأة بدأ بأقساط سيارة صغيرة ، مثلما فعل صديقه ، كان قد تعلم القيادة معه ، هنا غضب والده : لماذا لم تخبرني ، لماذا لم أذهب معك؟! بينما قالت والدته : مبروك .

في لحظة أخرى ، دخل شقيقه الصغير إلى البيت ، وبيده قطعة قماش تقطر طيناً ، ركضت أمه وأخذتها منه ، أين وجدتها يا ولد ، قال : جوار الباب . لبست أمه عباءاتها ، ثم خرجت بعد أن وضعت قطعة القماش في كيس ، ركض خالد خلفها ، إلى أين يا أمي ، نادته ، ركض خلفها ، حتى وصلا إلى تلك الحفرة ، التي كانت أثراً لبئر قديمة ، وترقد فيها جثة طفل سقط سهواً ، رمت قطعة القماش في أعماق الحفرة ، وهي تقرأ آيات من القرآن الكريم ، حين عادوا قالت لهم : هذه أعمال سحر لتفريقنا عن بعض ، ثم أطلقت تنهيدة وهي تجلس وسط البيت بعباءتها ، وقالت : الكفرة .
أشفق عليها في تلك اللحظة ، ودّ لو يحضنها ويقبل رأسها ،

لكـن لا يدري لماذا لـم يفعل ، مثلما يحصل حين يغيب عن والده طويلاً ، لكن حين يقابله يشعر بشيء يقف بينهما ، رغم معرفته بشوقه له ، هنا كانت عفاف مذهولة !! .

في عصرية أحد أيام الجمع ، سمع عن انتحار ولد الجيران ، منصور ، لم يصدق في بادئ الأمر ، وكان آخر مرة رآه ، مع اثنين آخرين ، في البيت الكبير المهجور الذي يقع قبل الشارع الرئيسي حين كان في وضع شبه عار ، واصل السير ناحية بيتهم للتأكد من الحادث ، يسير في الشوارع وحيداً ، تلك الشوارع الترابية المثيرة للمخيلة ولكل المشاعر ، كان يرسم بقدميه لوحات كأنها موسيقى ، يسير ببطء وعيناه على الأرض ، يرسم خطاً واضحاً ، يقطعه بخط آخر ثم دائرة ، ثم نقاط مبعثرة تعزف على وتر الإحساس الحاد بوطأة الوقت ، والإحساس الحاد تجاه الكثير من الصور المحبطة والمثيرة ، لم يكن يفهم معنى كثير من القصص التي تدور في حارتهم ، كان أحياناً يظن أنها قصص أساطير من نسج خيال جامح ، فهل يُعقل أن هذا الشارع الطويل الذي يمرّ به كل يوم ، ينطوي على هذه الحكايات المثيرة للخوف والحزن والألم ، والشفقة أيضاً .

يتحدثون عن ذلك الشاب (منصور) الذي يسمعون عنه كثيراً

ويرونه قليلاً كأنه أسطورة من الزمن القديم ، يقولون إنه في مساء الجمعة الماضية ، أشعل النار في جسده وأن بيتهم تحول إلى كومة رماد ، وأن (الولد) نقلوه إلى المستشفى بين الحياة والموت ، ثم أخيراً فارق الحياة هناك .

- لماذا . . .

- لا أحد يعرف . . لأن البيوت أسرار .

وصل بيت الولد المتمرد ، الذي قالت عنه أخته (مسكين) وقالت عنه أمه (مجرم) ، رأسه إلى الأرض وقدماه ترسمان الخطوة على لوحة التراب ، هذا هو بيتهم ، ولكن أين (كومة الرماد) التي يتحدثون عنها ، لم يتغير في بيتهم شيء ، يقف أمام باب البيت وقتاً ربما يخرج أحد منهم ، قد يرى كومة الرماد في الداخل ، ينتظر أن يفتح الباب ، حتى وصل والدهم وهو يحمل كيسين من الخبز والبرتقال ، يفتح باب بيته ، يدخل بسرعة ويترك الباب مواراباً بانتظار ابنه ، يطل خالد على مدخل البيت ويرى فوق الستارة من الخلف ، علامات سوداء في أعلى الجدار كأنها آثار حريق (مثلاً) أو كأنها . . . . لا يدري ، الآن بدأ يمسك أول الخيوط ، كومة الرماد تحولت إلى خيوط سوداء فقط ، نعم كان هناك حريق ، ولكن ربما ليس مقصوداً ، يعود وهو غير قادر على الربط بين ما سمع وما رأى ، يسمع حركة خلفه فيلتفت ، يرى ابنتهم الصغيرة تطل برأسها تنادي شقيقها ، كانت بجديلتيها

المعهودتين ، وعينيها اللامعتين مثل عيني عصفور ، وأنفها الأحمر الصغير ، يعطي وجهها شكل القطة ، تلاقت أعينهم ، ابتسم لها ، كانت على وشك الدخول إلى بيتهم ، قبل أن تُخرج له لسانها الأحمر ، ثم تبتسم بسخرية وتختفي ، وهو عاد إلى شارعهم يحدث نفسه بأن الصورة الأخيرة لوجه القطة ، أفضل من كومة الرماد .

أقبل على شارعهم الصغير وهو يفكر بأشياء كثيرة ، لماذا يحاولون أن يقتلوا أنفسهم ؟! وتذكر أن (منصور) كان مريضاً نفسياً ، وأنه عانى كثيراً قبل أن يموت ، لم يحب المدرسة يوماً ، كان الجميع يضربونه ، في البيت ، وفي المدرسة ، لكنه كان يضرب الجميع في الحارة .

هل مات حقاً ؟ هل كان هناك حريق بالفعل ؟ كيف يحدث هذا وأخت منصور ، ما زالت تمارس عادتها بإخراج لسانها الصغير للمارة وتضحك ؟

رأى صديقه وليد يجلس على عتبة الباب الخلفي للجيران ، وقد شمّر عن ساعديه ، ورفع ثوبه إلى ما فوق ركبتيه ، وبين يديه وفمه قطعة كبيرة من البطيخ ، يسيل ماؤها على وجهه ، جلس بجواره حائراً ، قال له الحكاية كاملة ، وأضاف عليها مخاوفه وأسئلته . . لكن وليد سأله :

– من أخبرك بموت منصور ؟

– قال له : هي قالت هذا .

- سأله : من هي ؟
- أجاب : أختي .
- قال له : اسكت ، منصور مات في حادث آخر (ثم تلفت حوله) ، سوف أخبرك فيما بعد .

كان وليد مرتبكاً ، وخالد يشك في أشياء كثيرة حوله ، وبدأ أيضاً ينسج حكاية جديدة ، لموت الولد الشهير والمتمرد منصور ، لكنها بالتأكيد سوف تكون بعيدة عن بيتهم الذي لم يتحول بعد إلى كومة رماد ، وقريبة من وجه (القطة) ، الذي يبدو أنه أحبه أيضاً وهذا يكفيه . يترك وليد على عتبة الباب ، ويواصل سيره ، في حارة ، كأنها سفينة ثملة ، تتحرك في كل الاتجاهات ، وما بداخلها ليسوا سوى أسماك حزينة ، بينما رائحة ليمون عارمة بدأت تفوح في الحارة .

يمشي في الطريق وحيداً ، ثوبه الواسع يحرّكه هواء لذيذ ، يمشي وهو يقبض بيدٍ ساخنة على ذكريات تنهض الآن بقوة ، على إيقاع شمس العصر الذي منح جدران هذه البيوت المتلاصقة لون الليمون .

يمشي بطيئاً ، ويحرك بقدميه هذا التراب الراكد .

هذا هو الطريق الذي يعرفه منذ سنوات ، فيه تعلم المشي والكلام .

من هنا سوف ينفذ إلى الشارع الأسود المعروف ، الشارع الأسود الصامت الذي فقد بهجة ضجيجه ، ولكن أين أهله وناسه ، وكيف فقد حياته هكذا فجأة؟!

لقد مرّ وقت كان يعتقد فيه ، أن كل سكان الأرض ، يسكنون في الشارع الأسود المشهور ، شارع الأغاني .

إنه قلب الحارة النابض ، ومقياس درجة أفراحها وأحزانها .

كان في صباح كل خميس يصحو باكراً ، ينزل من تراب سطح البيت الذي يضم نوم العائلة كل مساء ، ثم يهرب إلى هناك ، إلى شارع البهجة والناس ، شارع طويل بيوته متلاصقة مليئة بالبشر ، لكل بيت حكاية ، وكل حكاية مشروع رواية .

في تلك الأيام قام شباب هذا الشارع بطلاء جدران بيوتهم الخارجية بالأبيض ، لكن أطفال الحارة غطوا هذه الجدران البيضاء بكتابات سوداء لأغاني مشهورة ، فصار اسمه الشارع الأسود أو شارع الأغاني .

أول هذا الشارع يسكنه تاجر عقار لا يرونه ، له زوجة سمينة وبيضاء تبيع الباروكات وأدوات الزينة لنساء الحارة ، ولها ابنة نابهة تملك مذياعاً حديثاً تعتني به كثيراً ، وترفع صوت أغانيه في أغلب المساءات ، مات تاجر العقار فبدأت زوجته تشتري بيوت الحارة واحداً تلو الآخر لتنافس الشيخ إبراهيم العقاري ، حتى وصلت إلى بيتهم ، فرفض جدّه مساومتها ، قالت له : إن البنك العقاري سوف يقدم لكم قروضاً لتسكنوا في الأحياء الجديدة ، وسوف تنخفض أسعار بيوت

الطين ، لكن جدّه كان مُصراً على رفضه ، ثم جاء الشيخ إبراهيم العقاري ، وقبض على الحارة ، فتولى العقار وشؤون المسجد والعمودية . . وكل شيء .

وهناك في الطرف الآخر من الشارع يسكن تاجر الرز والسكر الذي امتلأ مالاً فتزوج من ثلاث نساء ، واحدة من الرياض وثانية من مصر وثالثة من الشام ، كان يفتخر كثيراً بدمه العربي النقي ، ولكن النساء أنجبن له عشرين روحاً فسكت الأب عن الكلام ، وصار يمشي في الشوارع وهو يحدث نفسه .

أما في منتصف الشارع الضيق فيسكن موظف البلدية الذي تزوج صغيراً وأنجبت له زوجته الكثير من الذكور والإناث ، يصارعهم كل يوم مثل ديك ، وحين يتعب منهم يهرب إلى سطح المنزل ، يدرب حمامه الذي في الأعشاش على الطيران البعيد .

والآن . . يشعر خالد أن المكان بكامله تاريخ لذكريات أسطورية وحزن قديم . . والطريق لغة ضائعة الخطى .

الآن شارع الأغاني فقد غناءه ، لأن زوجة تاجر العقار فقدت سُمنتها وبياضها ، وبيوتها الطينية التي اشترتها فقدت قيمتها ، فلم تعد تشتري الباروكات وأدوات الزينة لنساء الحارة ، وتعطل مذياع ابنتها النابهة فلم تعد تستمع للموسيقى ، وبدأت تحافظ على روح

مغلقة ، وتاجر السكر لم ينجح أولاده في المدارس ، وفقد أبو الذكور حمامه في المسافات البعيدة . وبدأ زمن إبراهيم العقاري .

يمشي وئيداً في المسافات الطويلة والضيقة ، في رأسه وجه مملوء بسمتٍ جميل ، لازال يذكر ملامح طفولته ، وفي قبضة كفيه ذكريات وخوف قديم وتعب وخسارات ، وبعض أغنيات تتساقط ملامحها خلف ظهره . . وهو يمشي ، بذاكرة متعبة وروح مريضة .

عاد ، إلى بيتهم ، قابلته أمه بخبر انتقالهم الشهر القادم ، إلى بيتهم الجديد الذي أكمل والده بناءه ، في حي البديعة ، كانت أمه فرحة بالخروج من بيت الطين الضيق إلى (فيلا) واسعة ، لكنها أيضاً تفكر في إخوتها وأخواتها الذين انتقلوا لأحياء أخرى ، بدأت تشعر بتشتت الشمل الذي جمعهم في هذه الحارة ، بينما استقبل خالد الخبر بشعور محايد ، لأنه كان قد عقد العزم على استئجار شقة ، لكن مع الإبقاء على غرفة له في بيت أهله الجديد ، حتى لا يشعروا بفقده أو يشعر بفقدهم . .

كان مهموماً ، بعبء دفتر مليء بالأحداث والذكريات والأحلام ، وكانت الصور الأكثر استثارة لروحه هي الأكثر سرية ، كان يمشي إلى غرفته في البيت أو إلى الشارع ، وفي رأسه صورة واحدة لبنت جميلة كاملة العري ، لكنه في لحظة استغراقه في هذه العادة التي يراها

سيئة ، لم يكن يستطع الفكاك منها ، هذه الصورة تلبس وجوهاً كثيرة رآها ، لكن وجه أميرة ، وبنت المخبز ، كانا الأكثر طغياناً ، وأحياناً كانت تبدو له فكرة الانتحار مغرية ، لكن سرعان ما يطردها ، لكي يسلي نفسه ، بمتعة أن يتصور جسد امرأة عارياً ، بالذات قبل أن ينام ، حين يتصور ، مثلاً ، أنه نائم على ظهره بعضو منتصب ، وفوقه فتاة جميلة ، تنتظر أن يحتضنها .

كان يتساءل عن علاقته بابنة الجارة أميرة ، هل هذا هو الحب ، بكل بساطة لم يكن يعرف ، لكنه بدأ يطرد فكرة ، أن يتخيلها عارية أمامه ، أحياناً يقول إن هذا بسبب احترامه وحبه لها ، وأحياناً يقول ، المفروض أن أراها مثل أختي ، ولهذا وقع عدة أسابيع فريسة صراعات وأسئلة ، فاشترى بعض الكتب والروايات ، أمضى وقتاً طويلاً يقرأ ، لكن لم يجد ضالته ، لأن أفضل الكتب التي قرأ عنها في المجلات ، ليست موجودة أصلاً في المكتبات ، بينما ظل وخز الضمير يؤلمه ، ويثير في روحه الرعب والشكوك ، فهو لا يعرف ماذا حصل لها في تلك الليلة المظلمة ، هل حدث شيء ما ، أم لا ، هل هي تعرف ماذا حدث ، أم لا ، أسئلة متتالية ، تجعل أوقاته ، في كثير من الأحيان ، مثل جحيم لا يطاق :

أميرة سمكة حزينة مثل أختي عفاف ، هكذا كتب في نهاية دفتره الخاص .

مكان آخر

اشتعل الصباح مبكراً هذا اليوم ، نهض على سماء ترسل قيظاً لاهباً ، يخرج إلى الشارع ، ينتظر وجهاً جميلاً يودعهم إلى الحي الجديد ، يقف على عتبة الباب الخشبي ، ويغني لكل شيء ، يخرج إلى الحارة ربما يجدها هناك ، ربما تطلّ عليهم ، ربما تسمع أصواتهم في الشارع وتطل ، كل الصور أمامه الآن مليئة بوجهها ، ربما تخرج الآن ، تجلس على عتبة باب بيتهم ، تضع يدها على خدها ، وتتفرج على أفراح وأحزان وأحلام حارتهم المتوعكة . قالت كل شيء ذات مساء ، وقال كل شيء ، وكان أجمل الكلام ما قالته تعابير وجهها ، وضوء عينيها الذي ما زال يغمر وجهه برحابة نوره ، يشرب من كأس يمرّ الآن بقربه ، وضعه وليد ومضى ، يضع الكأس جواره ، في قاع الكأس تنام وجوه كثيرة مع ورقة نعناع ، سوف يودعها الآن قبل أن يغادروا إلى عالم جديد ينتظرهم ، لقد مشى في هذه الحارة كثيراً ، قبل أشهر من عزلة تشبه الغياب ، حتى حان موعد الرحيل ، بعد سنوات طبعت أرواحهم على جدران هذه البيوت الطيبة . يشعر الآن أن شيئاً جديداً ،

وغامضاً يريد أن يعبّر عن نفسه ، في هذه الحارة المعتمة ، التي لا يعرف بعد : هل كنّا نحبها أو نكرهها ، . . ثم لمن ستكون بعد أن نرحل عنها ؟

أفاق والده من نوم طويل ، نهض من فراشه وهو يشعر بثقل في جسده وآلام في أطرافه ، مشى إلى الحمام ، وقف أمام المرآة وهو يتكئ على عصاه ، لاحظ توقف حالة الدوار التي تصيبه بعد الاستيقاظ مباشرة فحمد الله ، نظر إلى شعر وجهه الأبيض ، وعينيه التي تشي بمتاعب كثيرة ، كان يسمع زوجته وهي تتحدث مع امرأة أخرى ، وتكرر : إن شاء اللّه . . إن شاء اللّه ، وتلك المرأة التي لم يعرفها من صوتها كانت تقول لزوجته : امسحي بالفوطة المبللة بماء القرآن على رقبته وصدره . . . . . ، كان صوت المرأتين يأتيه واضحاً ، لكنه يشعر الآن ، فجأة ، في هذه اللحظة الخاطفة ، أن ما تتحدثان عنه قد سمعه من قبل ، بخصوص ابنه أحمد ، هذا الحوار السريع وهذه اللحظة الماثلة أمامه الآن ، كأنه عاشها من قبل ، رغم إدراكه باستحالة ذلك ، لكنه أفاق من هذا الشعور المفاجئ ، بعد أن فتح حنفية الماء على رأسه ، أغلق الحنفية ، وضع الفوطة على رأسه ، ثم خرج وهو يفكر ، ماذا سيفعل في الحارة الجديدة ، بعد أن يبتعد عن (دكان) الشيخ إبراهيم العقاري ، وبعد أن تعوّد على جيرانه سنوات طويلة . يفرش سجادته ويصلي ، وهو يستمع إلى الأصوات في الخارج ، زوجته

وأولاده ينقلون الأثاث إلى السيارة ، لكنه ما زال يشعر أن الحياة فقدت جاذبيتها ، منذ بدأت ملامح ما يسمونه بالطفرة الاقتصادية ، التي منحت الناس قروضاً لكي يبنوا بيوتاً جديدة في الأحياء الجديدة ، وكان أول معالم هذه الطفرة ، عندما اشترى جاره لابنه الصغير سيارة جديدة ، كان يقودها في الحارة كأنه يقود لعبة ، هذه الصورة لا تفارق مخيلته ، لأنه تجاوز الستين دون أن يتمكن من شراء سيارة مستعملة إلاّ قبل ثلاثة أعوام ، لكن الأطفال الآن يقودون السيارات الصغيرة في الشوارع الضيقة ، وكأن انقلاباً حقيقياً حدث في هذا العالم ، ثم هذا الارتفاع المستمر لأسعار كل شيء ، هل يتحمل المرتب الشهري المتواضع كل هذا .

فتحت والدته صندوقها الحديدي الكبير ، فانبعثت منه رائحة غبار قديم ، كان في الصندوق أكياس صغيرة لأعشاب ، وزجاجة مربعة من العسل أحضرها شقيقها من تركيا ، وجهاز راديو صغير استحال لونه البني إلى الأبيض وتقطعت جلدته ، من هذا الجهاز تابع والده كل الأخبار ، لكن بعد حضور التلفزيون ، فقد هذا الجهاز قيمته وصار تحفة أثرية مهمة تحفظها والدته ، جلست والدته أمام الصندوق ، فتشت ملابسها القديمة ، سقطت (صورة) ، رفعتها ، رأت نفسها تتوسط أولادها في حديقة الحيوان ، قبّلت أولادها ثم قبلت نفسها ، ضحكت ، وبدأت تجمع أشياءها استعداداً لنقلها إلى السيارة الكبيرة ،

التي تنتظر أمام المنزل .

الآن ، يتحلق أطفال الحارة حول سيارة النقل الكبيرة ، التي ستنقل أثاثهم ، عائلات كثيرة من الجيران سبقتهم في الانتقال إلى العالم الحلم ، لم يبق إلاّ القليل من الجيران الذين ينتظرون حظهم من (الطفرة) ، لترك هذه الشوارع الضيقة وبيوتها الطينية الآيلة للسقوط .

هؤلاء الأطفال المجتمعين من الشوارع الصغيرة القريبة ، هم أنفسهم الأطفال الذين كانوا يتحلقون في السنوات الماضية ، حول عربات تجرها الحمير كانت تتوقف أمام بيتهم ، لإنزال أكياس الرز والشاي والسكر ومواد التموين ، بعد عقود من الجوع ، مرّ بها أهلهم ، في مدن وقرى نجد ، وشهدوا بقاياها في طفولتهم البائسة ، لكن هذا الانتقال له ثمن باهظ ، دفعوه من أوقاتهم ونفسياتهم المتعبة .

في هذه اللحظة التاريخية ، تتوقف أمام بيتهم سيارة نقل حقيقية وليس حماراً ، وسوف ينتقلون إلى الأرض الموعودة ، لكن رأس خالد ما زال مشحوناً بالأسئلة الضاجة ، حول هذا العالم الجديد الذي سوف ينتقلون إليه ، من سيكون جيرانهم وبأية طريقة يتحدثون ، كيف يعيشون ، هل ينامون في سطح (الفيلا) ، أم سوف يتعودون على نوم غرف المكيفات ، هل سيأكلون (مثلاً) على طاولة طعام ، كما يشاهدون في التلفزيون ، أسئلة كثيرة بإجابات

غامضة معلقة .

الآن بـدأ يشم رائحـة جـديدة ، بعـد أن تم رش الشـارع التـرابي بالماء ، رائحة قوية ، كأنها تكسو جدران هذا الصباح بألوان طازجة ، رائحة هي مزيج بهجة وخوف وترقّب ، ومعها شعور بعيد وصغير ، يسكن في مكان قصي من الذاكرة ، بأن من سوف يخرج من هذه الحارة هو أحد سواه وليس هو ، لم يصدق حتى الآن أنه سوف ينتقل إلى مكان آخر بعيد عن هنا ، وكان يتساءل بعد هذا العمر : لمن ستبقى حارتنا هذه ، في هذه اللحظة مرّ عمر ابن الجيران ، يسأله عن شقيقه أحمد ، قال له : إنه في الداخل ، قال : ما شاء الله . إلى أين ، وكان ينظر إلى سيارة النقل ، قال خالد : كما ترى . . إلى البيت الجديد ، قال : مبروك إن شاء اللّه ، رد : الله يبارك فيك ، ثم مضى عمر ، وراح يتأمل خطوات هذا الشاب الصغير الملتحي بثوبه القصير ، يتذكره صغيراً ، وكان يراه قبل حوالي عامين ، كل صباح في مخبز الحارة ، ينتظر دوره ، كان مرحاً ومحبوباً وله طلّة حلوة بدمه الخفيف ، كان يسأله عن كرة القدم والأندية والشعر والأدب ، الآن لا يتحدث هو وشقيقه أحمد ، إلاّ عن الحلال والحرام ، رغم أنهما لا يزالان في سن المراهقة . بدأت مشكلتهما حين لم يستطيعا إكمال دراستهما الإعدادية ، بعض المتسربين من المدارس لجأوا إلى الدين ، وبعضهم أخذته حياة السفر والمخدرات إلى أقصى درجاتها . يذكر مرة

أن والده قال لشقيقه أحمد بعصبية : (نحن نعرف الله قبل أن تولد) ، وطلب منه أن يكف عن هذه الدروشة ، ثم التفت إليه ، كأنه يؤنبه على حياة السهر والانفلات .

خرجت أخته عفاف من البيت وهي تحمل حقيبتها السوداء الكبيرة ، وبيدها جهاز التسجيل الخاص بها ، تصدح منه أغنية خفيفة . لقد كبرت فعلاً وصار لها أشياؤها الخاصة ، وضعت حقيبتها في السيارة ، ثم غمزت له ، وهو جالس على عتبة باب الجيران ، مع ابتسامة خاطفة ، كانت أكثرهم بهجة في الخروج من هذه الحارة .

يتذكرها طفلة بجديلة قصيرة ، تركض معهم في صباحات العطلة الدراسية ، إلى سوق الرياض القديم ، بعد أن تتدفق العباءات السوداء في ذلك السوق الصاخب ، نساء يبعن الخبز والتمر والحمام والتعاويذ والأقمشة ، نساء ورجال في ذلك السوق الشعبي ، يتداولون أساطير شعبية ومقولات قديمة علقت بغبار الوقت ، يعرضون أشياء مسحوقة للمرضى ، في أكياس أو علب فارغة لها رائحة الحناء وطعم اليانسون والحلبة ، وكلها للمرضى ، هؤلاء الذين فقدوا القدرة على مواجهة الحياة ، إلاّ بأرواح سوداء ويأس وقلوب معذبة ، يقرأون عليهم الآيات ، وينفثون الهواء من صدورهن المتعافية على الصدور المريضة ، التي تبكي آناء الليل وأطراف النهار .

امتلأت سيارة النقل ، انطلقوا أمامها ، تحركوا فتحركت هواجس كثيرة في داخله ، يرى بيتهم يبتعد عنهم ، ليس المكان فقط ، لكنه يرى الوجوه والأحداث والصور تبتعد أيضاً ، ويرى أشياء كثيرة تتساقط خلفه ، يرى ذكريات وأحلاماً وأغاني وأحزاناً وأفراحاً ، تاريخاً مزدحماً بصور تبتعد في لحظة صريحة .

وصلوا بيت الأحلام ، أنزلوا الأثاث ، بفرح متردد ، لكن لا أحد حولهم ، لا أصوات ، ولا جيران ، فقط أطفال قليلون ، يجلسون بأدب على عتبات بيوتهم . كانت بيوت الجيران ساكنة ، بأسوارها الشاهقة .

أدخلوا الأثاث إلى المنزل ، غادرت سيارة النقل ، بدأوا بوضع الأشياء في أماكنها ، حتى داهمهم التعب ، فناموا في صالة (الفيلا) الواسعة والمبعثرة الأثاث .

استيقظ باكراً وأمضى كل الوقت في غرفته الجديدة ، غرفة حقيقة بجدران ملونة ، لا أحد يشاركه في اتساعها ، غرفة بنافذة زجاجية ، بعثر تفاصيل حياته في وسطها ، وبدأ يضع كل شيء في مكانه ، حتى ذاكرته ، قرر أن يضعها في أحد الدواليب مؤقتاً ، ريثما يستعيد ذاته المبعثرة .

سَفَر الروح

كان والده أكثرهم إحساساً بالضيق ، ومع مرور الأيام ، بدأ يتعود قليلاً ، على هذا المكان الجديد ، لكنه كان يطلب من ابنه أن يوصله إلى حارتهم القديمة ، نهاية كل أسبوع ، يضعه أمام مكتب الشيخ إبراهيم العقاري عصر كل خميس ، ثم يعود إليه بعد صلاة العشاء .

انقطع الأقارب عن زيارة والدته ، إلا في المناسبات الهامة ، لكنها تواصلت مع الجارات الجديدات ، بينما لازال شقيقه أحمد ، يجتمع مع بعض الشباب في مسجد الحي ، أو يغيب أياماً طويلة عن البيت ، ثم بدأوا في طبع الكتيبات ، التي تحلل وتحرم ، مع إطلاق أصوات مكبرات الصوت بالمسجد إلى أعلاها ، ربما تعبير عن وجودهم .

بينما حبست أخته عفاف نفسها في غرفتها ، تقضي الوقت في مذاكرة دروسها ، أو النوم أو مهاتفة صديقاتها حتى تزوجت . وهكذا عصفت بهم رياح التحول ، الهدوء والرتابة والملل ، حلت مكان الضجيج والحركة والزيارات المتبادلة بين الجيران والأقارب ، ليس بسبب تباعد المسافات بين الأحياء الجديدة فقط ، ولكن لأن حياة

الناس أنفسهم قد تغيرت ، ليس من الداخل ، لكن من الخارج ، فالجميع تقريباً ، بدأوا مشوار الركض لمواكبة التحولات الاقتصادية ، فامتلأت الشوارع بالمشاريع الاستثمارية الصغيرة ، مطاعم ، مشاغل ، خياطون ، محلات فيديو ، عمائر صغيرة ، وامتلأت البيوت بالتحف من كل بلد ، يتفاخر الناس بها ، كما لو أنهم صنعوها .

يلاحظ كيف تحولت الرياض إلى ورشة عمل بلا إنتاج حقيقي ، وفاقدة لأبسط ملامح الحياة الحقيقية ، ركض متواصل ، لا تدري إلى أين ، شباب يلهثون خلف تجارة غير مضمونة ، وشباب آخرون لم يعجبهم هذا الملل ، فلجأوا إلى الدين ، لكي يملأوا أوقات فراغهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبدأت الحكايات والقصص المثيرة تنطلق ، من هذه الحياة التي فقدت روحها ، حتى بدأوا يسمعون عن المشاريع التجارية الفاشلة وسقوط أناس كثيرين ، وتحطم أحلامهم التجارية ، وصعود آخرين إلى مراتب الأغنياء والوجهاء والأعيان ، وكل ذلك يتم بضربات حظ تجارية ، إما تضعك في أعلى السلم ، أو تهوي بك أسفل سافلين . كان يقرأ في الصحف عن حكومات في جنوب شرق آسيا انطلقت ببلدانها ، بينما هنا مكانك سر مع كل هذه الثروة ، يتسابقون على السفر وشراء الأراضي وبناء القصور ، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . فقط . . هذا كل ما عملناه .

يذهب للعمل صباحاً ، يعود في الثالثة ظهراً ، يضع الصحف

جانباً ، يجلس ليأكل مع أهله ، ثم يصعد لغرفته ، يغير ملابسه ، ثم يحاول النوم ، في الغالب يظل يقظاً ، يتقلب في الفراش أكثر من ساعة ، حدث هذا أكثر من مرة ، على مدى أشهر ، منذ أن سكنوا في هذا البيت ، ولهذا صار يذهب إلى شقته ، منتصف كل عصر ، وأحياناً ينام هناك .

ذات عصرية مغبرة ، أفاق في بيت الأهل قبل المغرب بقليل ، فرأى الهواء قد دار حول نفسه دورة . . دورتين . . ثلاثاً . . في هذه المدينة المتحجبة ، فاستيقظ التراب الراقد منذ زمن ، وبدأ يلاحق موجات الهواء الصغيرة التي تدور حول نفسها ، اتسعت الدائرة ، فارتفع التراب عموداً أحمرَ ، أخذ مكاناً واسعاً في الفضاء الفسيح ، على حدود المدينة ، مدفوعا بريح أكثر يأساً ، صارمة ، بدأت تدور كأنها امرأة تبحث عن حب مفقود ، الهواء يصارع نفسه في أعماق المدينة ، يهب عليها من كل الجهات ، كأنه يريد ابتلاعها بصفير حاد ، غاضب وصارم ، والتراب بغزارة يتساقط على الرؤوس المبهورة ، يغطي أسطح المنازل والمساجد ، يغمر فناء المدينة بالعتمة ، ويتحرك إلى الجهات الأخرى ، يعبر الشوارع والأرصفة ، الحارات ، وجوه الناس ، يغمر الجدران ، الأشجار ، ومقابر الأجداد ، يغمر كل شيء مدفوعاً برغبة ما غاضبة وكئيبة في جو رهيب . الرجال والنساء والشيوخ يركضون إلى مساكنهم مثل فئران مذعورة ، يغلقون الأبواب والنوافذ بأصوات تتوحد في صندوق الذعر ، غضب عارم من الله ، حل بالمدينة الطيبة ، لكن

الأطفال وحدهم ، ينسلون من مساكن آبائهم خفية ، يركضون في الحارات ، كأنهم يحتفلون بضيف المدينة ، في مهرجان بهجة وشرود وخوف لذيذ ، يرقصون في الحارات للذي دخل مدينتهم ممتلئ الفم بالكلام ، يركضون في الشوارع وتحت الجدران ، يزفون وقتهم إلى حرارة أخرى مكتنزة ، عذبة وجريئة ، في عرس كأنه موصول منذ آلاف السنين . الريح تتجه جنوباً تقود تراب المدينة ، وتزيح بعضاً منه عن قرص الشمس ، وتبدو في خروجها المهيب كما لو أنها عروس من النار ، الأطفال ينفضون التراب عن شعر رؤوسهم وثيابهم وأصواتهم القديمة ، يرشون الماء على التراب الذي بدأ في الركود أمام أبوابهم الوجلة ، يعجنون الطين من جديد ، يتذكرون أسماءهم القديمة وتواريخ ميلادهم ، يرسمونها على الجدران ، الجدران التي صارت أكثر بريقاً تحت شمس ساطعة وجديدة ، في مرحلة جديدة .

بعد هدوء العاصفة دخل على والده ، الذي وضع الجريدة جانباً وفوقها وضع نظارته ، قال لوالده : غادرت العاصفة وهدأت الأمور ، قال الأب : لازلنا في قلب العاصفة ، ولا أظن الأمور سوف تنتهي .

بدأ يشعر أن والده مريض فعلاً ، لأنه كان يسعل كثيراً ، وكان تنفسه بطيئاً . .

قال له : سوف نزور الطبيب ، قال : ليس الآن ، سأله : لماذا ، قال : أنا الآن أفضل ، وغداً الخميس نأخذ العمال لإكمال عملنا في بيت جدك . قال : حاضر .

في صباح الخميس أخذ والده وذهبا إلى بيتهم القديم ، كان الشيخ إبراهيم العقاري ، قد أحضر العمال ، وبدأوا في الحفر والبناء ، منذ الصباح الباكر ، وظل والده يراقب عملهم حتى منتصف العصر ، شعر بالتعب فاستراح على ورق من الكرتون المقوى ونام ، حاول خالد إيقاظه بعد دقائق ، لكنه لم يرد ، وعلى الفور نادى على الشيخ إبراهيم ، الذي جاء ومعه بعض الجيران الذين كانوا في مكتبه ، فنقلوه إلى المستشفى ، أمضى هناك ثلاثة أيام بالتنفس الصناعي ، فقد بعدها روحه ، ذهبت إلى سماء خالقها بكل هدوء وسكينة ، بعد عصر يوم الغد توافد المعزون على بيتهم ، جاءوا من حارات الرياض القديمة ، ومن قريتهم ، أناس عمل معهم والده سنوات طويلة . في مجلس العزاء كان خالد صامتاً ، يتقبل العزاء مع شقيقه وأخواله حتى قال أحدهم : كان رجلاً طيباً رحمه الله ، فرد عليه الآخر : سبحان الذي لا يأخذ إلى جواره إلا الطيبين ، كاد يضحك خالد من هذه العبارة الأخيرة ، لكنه تمالك نفسه ، وهو يتساءل في نفسه : ماذا لو أن الله فعلاً لا يأخذ إلا أرواح الطيبين . . ، كيف سيتفاهم البقية في هذه الحياة . استمر العزاء ثلاثة أيام ، تعرفوا خلالها على الجيران في هذه الحارة ، ثم عاد الهدوء بعد ذلك إلى البيت من جديد .

سافر شقيقه الصغير أحمد إلى أفغانستان وانقطعت أخباره ، لهذا لم يذهب لشقته عدة أسابيع ، واصل حياته ما بين العمل وبيت أهله ، حاول أن يكون أكثر قرباً من والدته ، رغم وجود خالته التي

قررت البقاء في بيتهم بعد وفاة زوجها ، وزواج أبنائها وبناتها ، حتى ملّ هذا الروتين اليومي ، فقرر في تلك اللحظة من صباح أحد أيام الخميس ، أن يزيح ستارة النافذة بكاملها من غرفته ، وأن يملأ غرفته بالنور والبخور ، يفتح جهاز التسجيل ، يرفع الصوت عالياً ، يرفع صوته معه ، يرقص ، يدخل الحمام ، ويخرج منه منتشياً ، يلبس ثيابه ، يغني مع عبدالحليم حافظ ، يغمض عينيه وهو يقدح من كأس قديم بشراهة ، كأس بورقة النعناع التي يعرفها ، ثم يخرج من غرفته مثل طير ، يقبل رأس والدته ، وشقيقته عفاف التي جاءت لزيارتهم ومعها ابنتها الصغيرة ، ثم يودعهم كما لو أنه مسافر ، يخرج إلى الشوارع ، ينطلق بسيارته إلى جحره الآمن ، بعيداً عن الوجوه المتلصصة ونظراتها المريبة التي تتربص بالجميع ، في أركان الحارة ، يملأ رئتيه بالهواء الطازج ، ثم يعود إلى شقته ، يستمتع بظلمة شارعها وهدوئه .

في هذا اليوم كان عراق صدام قد قرر أن يكون ضيفاً ثقيلاً على الكويت .

ثم توالت ، الصور ، والمسيرات الدينية ، وانطلاق بعض النساء في مظاهرات انفعالية لقيادة السيارات ، وكأن القدر المكتومة كانت بحاجة إلى غزو ما ، لكي تُعبّر عن ذاتها ، وأخيراً . . كانت صورة ضرب بغداد ، كاتمة لأنفاس الجميع ، وكانت أول خطوة ، لاحتلال سافر لكامل المنطقة .

صورة غامضة

لا أحد يسأل عن شيء ، في هذه الرياض .

تعوّدوا في هذه المدينة على رتابتها ولا مبالاتها وصمتها الضاج ، وأن الجدران لها آذان . .

صمت عميق يوحّد كل شيء . .

يقابله ضجيج الشوارع والبيوت ، ضجيج فج لا معنى لـه ، في مدينة لا تعرف هل هي متدينة أم منحلة ، مدينة لكن الذي في قلبها ليس على لسانها ، مدينة تنام على ركام هائل من الكلام الذي لم يُقَلْ حتى الآن ، مدينة كاتمة صوت ، مثل (قدر) مكتومة ، الرائحة تغلي منذ زمن في داخلها ، الرائحة تريد أن تفوح ، والناس ربما تعرف أن رائحة ما سوف يفوح في أجواء المدينة ، وينشر المستور ، بعد أن راكموا الكلام وناموا فوقه .

هل أحب هذه الرياض أم أكرهها؟!

هل أنا سعيد فيها ، أم شقي؟!
هذه الأسئلة تذكّره بمدرس الدين :
السعيد يدخل الجنة ، والشقي يدخل النار
السعيد كان يسمع كلام الله . .
بينما الشقي يسمع كلام الشيطان .

لكن هذا المدرس المتحمس جداً ، يفتح علبة سجائره ، خلف سور المدرسة ، يدخن واحدة ثم يعود لفصل آخر ، يكرر درس السعادة والشقاء ، وهو يحك فخذيه على حافة أول طاولة في الصف ، طوال عمر الحصة .

بينما أحدهم في الحارة ، قبض عليه ، وهو يدخّن واحدة ، من سجائره الأولى الممتعة ، في أعماق الشارع الصغير الذي يقع خلف المسجد ، صرخ في وجهه :

تدخن . . تدخن يا ولد (الزنوة) . . لو يعرف أبوك .

ولهذا ظل يتساءل بعد هذه الحادثة عن العلاقة بين الزنا والتدخين ، هل التدخين زنا أم أن هذا الشيخ قليل أدب؟! لكن كلمة (زنوة) رنّت في رأسه ، مثل نغم مرتعش ، رنّت طويلاً ، وكان يود أن يصفعه ، بينما ظلت وخزة الضمير ، وصورة البنت أميرة والخوف ،

والذاكرة الضعيفة ، تعذّب كيانه المريض .

لم يكن يتوقع أن يأتيه هذا السيل الهادر من المهاتفات الناعمة ، حال استئجاره لشقة صغيرة بعد أن قبض على الوظيفة ، واستقر أهله في الفيلا الجديدة ، لم يكن يتوقع أن تفتح له هذه الشقة أسرار العالم الغامض لمدينة الرياض ، كان في البداية ، أيام الدراسة والجامعة ، مثالياً حالماً ، وظل كذلك مع هذه الأصوات الناعمة ، بعد التخرج ، حتى سقطت الحواجز النفسية بينه وبينهن شيئاً فشيئاً ، فبدأ معهن مرحلة خجل مليء بالرغبة العارمة ، ثم تكسرت كامل الحواجز ، وظلت الأصوات الدافئة تتقاطر من كل مكان ، فامتلأت أيامه بأنواع البنات ، فعمل لهن تصفية بعد عامين من الفوضى ، تبقى ثلاث فقط ، يراهن نفسه على حبهن له ، وبالذات (نجود) التي صارت تعتني به مثل زوجها ، تأتي ظهر كل خميس ، تنظف شقته وتسهر معه ، ثم تغادر إلى بيتها ، أما بقية البنات ، اللاتي جئن من العالم السفلي لشارع الخزان فقد قطع معهن العلاقة نهائياً ، بعد محاسبة طويلة مع الذات . نجود امرأة في الثلاثين مطلقة ومعها طفل واحد ، تعرف عليها مصادفة في أحد الأسواق ، لم يهتم بها كثيراً بادىء الأمر ، لأنه رآها ابنة بطر ، وحين عرفها جيداً بعد وقت ، أدرك أنها إنسانة حقيقية وبسيطة ، تخفي سخطاً ، وإحساساً بالغربة وسط حياة أسرتها الرسمية ، وهكذا تواصلت اللقاءات بينهما .

كان يشتري الصحف يومياً ، يستمتع بقراءتها كل مساء ، وأحياناً يفكر أن يكتب أو يرسم لكن لا يجد مزاجاً لهذا ، كان يكرر أن التدخين والأكل أفضل عمل في هذا البلد ، بعد ذلك أصبح يشتري جريدة واحدة فقط ، حتى لا يكون معزولاً عن العالم ، يقرأها على عجل ، خصوصاً بعد أن ملّ عناوينها ومواضيعها المتكررة .

يريد أن يكتب من أجل تنشيط الذاكرة فقط ، كما طلب منه الطبيب ، حتى لا يأتي يوم يصبح فيه رجلاً بلا ذاكرة ، أو يعد من الواحد إلى العشرة .

الأشهر والسنوات ، تمرّ بصمت عظيم . .
زيارات للأقارب والأصدقاء ، أو انقطاعات مفاجئة . .
الكل غرقوا في دوامة حياة ، يجرفها الزمن من كل جانب .
يهرب إلى عاصمة عربية كل عام . .
يحمل أمراضه المستعصية ، ويسافر إلى كل مكان .
يذهب من أجل أشياء كثيرة ، لكنه يسهر وينام فقط ، ثم يعود .

حالات قلق ، تصاحب الإحساس الواضح ، أن البيت الحلم ، والأسرة الحلم ، والعمل الحلم ، والمسرح الحلم ، كلها ذهبت في مهب ريح سخيفة ، ولهذا بدأ يفكر لماذا مات شقيقه في أفغانستان ، ولماذا انتحر قبله في الحارة جارهم منصور ، ولماذا تطل عليه ، لحظات يشعر

فيها بفكرة الانتحار على نحو غير جدّي ، كأنه يجسّ نبض ذاته ، ظل يعتبر موت شقيقه في أفغانستان جزءاً من انتحار جارهم منصور ، وجزءاً من حالته البائسة الآن ، والتي تحاول الآن البحث عن أميرة مهما كانت الظروف ، من أجل أن يستكمل عقد صور حياته المتتالية ، بغموضها وحيرتها ومخاوفها وشكوكها الدائمة .

يدخل من ضمنها صورة زوج أخته المسكينة عفاف .

كان هذا الرجل محايداً ، ومتفائلاً ، ومستقيماً مثل المسطرة ، يقضي أوقاته في النوم والأكل والعمل كأنه من خارج هذا العالم الصاخب حوله ، أحياناً يحسده ، وأحياناً يشفق عليه ، فهو ينام في التاسعة مساءً ، ويصحو في السادسة صباحاً ، يفطر ثم يذهب إلى عمله ، يعود لتناول الغداء وينام ، أحياناً يخرج من العمل إلى البيت لممارسة الجنس فقط ، ثم يعود إلى العمل مرة أخرى ، يحب الحكومة ويحب المال كثيراً ، ويحب النساء أيضاً ، ويرى أن كل شيء على ما يرام ، كما يقرأ في الصحف ، لكننا لا نشكر الله ، ويرى أيضاً أن إسرائيل ابتلاء من الله واختبار لإيمان المسلمين . يذهب عصرية كل جمعة إلى حراج السيارات ، يشتري سيارة ثم يبيعها الجمعة الأخرى ، بعد أن يدخل عليها بعض التحسينات ، فصار له دخلان ، لكن حياته في بيته تشبه حياة الفقراء ، لأن رائحة بخله وصلت

للحارات المجاورة ، كما أنه يستمع للموسيقى ، ثم يقول إنها حرام . في الصيف يسافر إلى المغرب ويترك زوجته وابنته عند أهلها ، حتى تعب من هذه الحياة ، فأطلق لحيته ، واتجه إلى طريق آخر مليء بالمواعظ والأمر بالمعروف ، كره الحكومة وظل يحب النساء ولهذا انطفأت عفاف ، ووهبت حياتها لبيتها ، وطفلتها التي تلمع في عينيها مواهب أمها .

فهل ستنطفئ هي الأخرى ، كضوء صغير وتعيس ، قبل أن يجد الوقت الكافي للإضاءة ، كان هذا سؤال خالد ، في آخر زيارة له لبيت أخته عفاف .

يأتي صديقه وليد نهاية كل أسبوع لزيارته ، يمضيان معاً الخميس والجمعة بعد أن فقدا حرارة اللقاءات السابقة ، وتبعثر الأصدقاء ، وهدأت الأمور ، وأصبح الناس أكثر انشغالاً بعد انتشار قنوات الفضاء والهواتف النقالة والأسواق المركزية الكبيرة والمقاهي .

قد تكون الحياة ، مجموعة صور متتالية لا رابط بينها ، سوى ما نحاول صنعه في علاقاتنا ببعض . .

هذا ما وصل إليه حين تذكر (أميرة) . . أين هي الآن ؟

هل تزوجت رجلاً محايداً مثل زوج أخته عفاف ، أم أن لها

صديقاً مثل (نجود) .

قبل أيام سأل أخته عن أميرة ، قالت لـه : سمعت أنهم سكنوا في الحارة المجاورة لنا ، بعد طلاقها ، سألها : هل لديها أطفال ، قالت : لا أعرف ، في هذه اللحظة كانت ابنة عفاف ، تتابع حوارهما بعينيها الصغيرتين واللامعتين فقط ، بادل الصغيرة نظرة خاطفة وهو يردد في نفسه : لازلت كائناً مؤجلاً .

هكذا تتالت صور الحياة بانطفاءات متتالية . .

انطفاء والده بالموت ، وشقيقه بالانتحار في أفغانستان ، وشقيقته بالزواج ، وأميرة بالطلاق ، ووالدته بأمراض الزمان ، وهو تحول إلى ذاكرة على وشك النسيان ، لكن طعم السكر لازال في لسانه قوياً ، ويمنحه إحساساً صغيراً ومتفائلاً بالحياة ، ويبعد مؤقتاً هاجس الانتحار .

صوت الصمت

في لحظات نادرة ، تمر به ، سريعة مثل برق ، وعميقة مثل محيط ، تدهمه تلك الرغبة الخاطفة في البكاء ، فيسأل هذه الرغبة الروحية الجارحة ، لماذا لا تأتين كثيراً ، وتطولين قليلاً ، لكي أقبض على بعض أسرارك . .

صوت مشع يأتيه من الأزمنة القديمة ، يطل برأسه كل مساء ، يقول له بصوت هامس كن أنت وليس أحداً سواك .

يشعر ، الآن ، كما لو أنه يطل على العالم ، من ثقب صغير في جدار بيته الصامت ، كانت الظلمة تتكاثف ، وكان يسمع أحاديثهم واضحة ، يصمتون قليلاً ، ثم فجأة ، تأتي أحاديثهم من مكان آخر في البيت ، ربما من غرفة الجلوس أو الصالة ، وكان يرى نوراً ضئيلاً يتحرك أحياناً في أماكن مختلفة .

المكان الضيق جداً ، الذي وجد نفسه فيه ، أمام النافذة المفتوحة ، على الفضاء الواسع بدأ يضيق أكثر ، مختنقاً بدخان سيجارته ، وأطرافه استكانت بجانبه ، تمتد عيناه إلى دولاب الصالة الخشبي ، يتذكر أوراقه

وكتبه ومشاريعه الصغيرة المؤجلة ، تغفو أحلامه قليلاً ، ليسمعهم بهدوء يخرجون من بيته واحداً إثر الآخر ، وهو يرى أنه تحول إلى ثقب صغير في جدار قديم ، يبحث عن أعضائه التي اندثرت ، يشعر أنه على وشك التبخر قطرة . . قطرة ، بدأت منذ لحظة ولادته ، وحتى الآن ، بعد أن سمع تلك الأنات الخافتة القادمة من أغوار سحيقة في صدره ، فيرى معها ، أنقاض أرواح ، وأنقاض أحلام ، وأنقاض نضالات مؤجلة ، وأنقاض أشياء كانت زاهية ، وأنقاض أسئلة ، وأنقاض خوف قديم ، من كل الآباء ، من المستقبل ، من وخزات الضمير .

للمرة الألف تعتريه رغبة في الصمت ، والتوحد ، مع صمت الأشياء حوله ، يكسر كل العادات : أريد أن أستمع إلى موسيقى جميلة تعيدني طفلاً ، أو شاباً مريضاً بالحب ، أو مسافراً في غربة طويلة ، أو تائهاً في صحراء لا أعرف اتجاهاتها ، أريد أن أنام بهدوء الطيور لا أحلم بشيء ، ولا أثقل رأسي بالتفاصيل .

أحتاج إلى وقت نبيل ، عميق وهادئ ، وامرأة تهرب معي ، حين أريد أن أركض في كل الجهات ، وتظل معي حين أريد العودة إلى ركني المعزول ، وصديقاً لا يطعنني في الظهر ، وقلماً أسجل فيه هزائمي وانتصاراتي .

أريد أن أكون لوحةً ، سؤالاً ، حلماً ، طفلاً ضالاً في شوارع مدينة

واسعة يبحث عن امرأة قديمة ، تعلّمه كيف يظل واضحاً مثل ماء ، ونقياً مثل قلوب الفقراء .

يراقب هواجسه وهي تلهو فوق طاولة المكتب ، لم تغامر بالنزول ، ولم تغامر بالتحليق عالياً ، هواجس مثل سحب صغيرة خجولة ، تستنشق هواء الغرفة ، تسأل : أي أمراض تتركون الآن لأطفالكم أيها الفاسدون .

في نوماته القلقة يراهم بعيون حمراء ، يأكلون الشوارع ، بعيونهم الجائعة ، يراهم يحصون أموال الناس ويتضاحكون عليهم ، يسرقون كل شيء أمامه ، ثم يراهم ذات مساء ثقيل يتكاثرون حوله ، فيصحو هلعاً ، ويطردهم من غرفة نومه .

كانت بعض الأصوات ، في مثل هذه النومات القلقة ، تأتيه مروّعة وعارية وكئيبة ، أصوات تأتي من البعد ، توقظه وتسافر به ، ليرى آباءه وأجداده القدماء يتجولون في شوارعه الصغيرة ، ويتأملون في سحنات وتعابير وجوههم ، ويتساءلون عن أحوالهم ، وهو يرى ذلك الشعور العميق بالرغبة في الصمت يتكالب على وقته ، لكي يستعيد صورة لا زالت مشوشة لذلك البيت الصغير الذي تركه ، كانت على ملامحه آثار أطفال ، رسومات على ورق أبيض ، نخل ، خيام ، جداول زرقاء ، عود موسيقى ، أقلام رصاص ، طائرة ، ثم نجمة تدور في فضاء الغرفة منذ زمن طويل ، وعلى الجدار الآخر ، وجوه بعيدة تمشي في صحراء واسعة ، وآثار أقدام لشعراء نجد

الجاهليين ، لم تدفنها الرياح .

يريد أن ينام بهدوء الطيور ، لا يحلم بشيء ، ولا يثقل رأسه بالتفاصيل ، يقرأ ويكتب كل يوم أغنية جديدة ، عن طعم لسكر قديم لازال في لسانه .

حين انتهت أوراق الدفتر الأزرق ، وجد أن الموسيقى ، النغمة المرتعشة ، طاغية على مفردات الكلام ، وأن الصمت كان سيد المواقف ، والخوف متربعاً في كل ركن يوزّع شكوكه ، والحقيقة الهاربة التي طاردها ، لم تزل هاربة .

ترك أوراق الموسيقى والحزن والموت والأسئلة ، وخرج إلى الحارات يبحث عن الحقول الغائبة ، وعن الحارات التي تبدو مثل سفن ثملة ، وحولها الأسماك العمياء الحزينة .

يكتب الآن على الجدران ، أنقاض أحلام ، يكتب على حصى طرق نجد العتيقة ، أنقاض أسئلة ، وكتب الإهداء إلى شقيقته عفاف . .

لا . . يا عفاف ، لست مريضاً ، أنا فقط أختنق بريقي ، أحياناً ، وسط النوم ، أصحو هلعاً أشرب نصف كأس الماء جواري ، وأعود إلى

النوم (يضحك) ، لكن هل لا زلت سمكة حزينة . .

- نعم (تضحك) .

يقول لها بصوت عالٍ ، من خلال الهاتف :

- أنت أول من نبهني إلى أغنية (وين الملايين) هل تذكرين . . أنا قادم إليكِ .

ينطلق الآن إلى غرب الرياض :

أنا لست مريضاً ربما ، صحيح تحسن وضع الذاكرة ، لكن لا زلت قلقاً في نومي ، وقلقي يمكن أن أرفع منه ، حتى يتجاوز طول قامتي ، هل فهمت يا عفاف ، بعد ذلك أتجاوز الأيام السوداء ، ثم أفكر بالزواج ، كما تريدين ، يجب أن أتدرب على حياتهم جيداً .

هل تفهميننني يا عفاف ، لسنا أسماكاً عمياء وحزينة فقط ، نحن جميعاً كائنات مؤجلة ، لا أريد أن أموت الآن ، أريد أن أظل بصحبتك ، كائناً مؤجلاً يا أجمل نساء العالم .

يخرج ، مرتبكاً ، يرفع كفيه ، في الطريق ، لا يزال يرى في أظافره شكلاً لأبيه الذي في الممرات البعيدة ، أبوه الذي في الدروب القديمة ، يحني رأسه وتاريخه للأشياء ، بينما فكرة انفصال الروح عن الجسد ، ترنّ في رأسه بعمق .

المؤلف في سطور:

- فهد العتيق ، روائي وقاص .
- ولد في الرياض - السعودية .
- صدر له أربعة كتب في القصة القصيرة ، هي : (مسافات للمطر) عن جمعية الثقافة بالرياض عام ١٩٨٥م ، و(عرض موجز) إصدار خاص عام ١٩٩٠م ، و(إذعان صغير) عن مختارات فصول بالقاهرة عام ١٩٩٠م ، و(أظافر صغيرة) عن نادي جدة الأدبي عام ١٩٩٧م ، وصدر أيضاً عن الهيئة المصرية العامة للكتاب - مختارات فصول عام ٢٠٠٠م ، ورواية (كائن مؤجل) ٢٠٠٤م .

- له قيد الإعداد للطبع : رواية (أنوار قليلة) ، والمجموعة القصصية الخامسة (أنفاس الليل) ، ونصوص أدبية قصيرة بعنوان : (كتابة أخرى) .
- تُرجمت بعض قصصه إلى الانجليزية والفرنسية عام ١٩٩٣م ، عن طريق مجلة لوتس ، وكتب بعض الأدباء والنقاد العرب عن قصص (إذعان صغير) و(أظافر صغيرة) في الصحف العربية ، باعتبارها من التجارب القصصية الناضجة على المستوى العربي .
- البريد الإلكتروني للمؤلف : fahdateq@hotmail.com
- ص . ب . ٤٢٨٢٦ - الرياض : ١١٥٥١

الفهرس

الإهداء	5
جسد وروح	7
صمت الأشياء	17
كائن مؤجل	35
يقظة غير صريحة	45
حياة أخرى	55
طعم السكر	79
مكان أخر	103
سفر الروح	111
صورة غامضة	117
صوت الصمت	125